محمد صلى الله عليه وسلم

القائد الأعظم في السلم والحرب

دكتور
محسن محمد معالي

محمد عبد المنعم رضوان

مؤسسة حورس الدولية

محمد

القائد الأعظم في الحرب والسلام

صلى الله عليه وسلم

محمد عبد المنعم رضوان

مؤسسة حورس الدولية

رضوان ، محمد عبد المنعم

محمد القائد الأعظم فى الحرب والسلام (عليه الصلاة والسلام) / محمد عبد المنعم رضوان .- الإسكندرية: مؤسسة حورس الدولية للنشر، ٢٠١٠.

٢١١ ص، ٢٤ سم

تدمك ٩ - ٢٩٧ - ٣٦٨ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ - محمد القائد الأعظم فى الحرب والسلام (عليه الصلاة والسلام)

أ - العنوان

٢٢٤

طبعة أولى

٢٠١٠

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١٠/٢٢٤٩

الترقيم الدولى I.S.B.N

٩ - ٢٩٧ - ٣٦٨ - ٩٧٧ - ٩٧٨

الإخراج وفصل الألوان

وحدة التجهيزات الفنية

مدير النشر

مصطفي غنيم

مؤسسة حورس الدولية

١٤٤ شارع طيبة – سبورتنج - الإسكندرية

ت ٠٣/٥٩٣٠٥٩٨ ف ٠٣/٥٩٢٢١٧١



﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ ﴾ صدق الله العظيم

(سورة التوبة : آية ١٠٥)

الحرب من أجل السلام

يدعي أعداء السلام أن هذا الدين العظيم انتشر بالسيف ، وهذه الأكذوبة الضخمة لا تقف علي قدمين ، ولا تنظر بعينين ، ولا تتنفس برئتين حينما نقتلها بسيف الحقيقة ، ونسحقها بصواريخ العدل والحق ، ونبددها بأشعة التعاليم الإسلامية الرحيمة في هذا الكتاب عن التاريخ العسكري الجليل لأعظم قادة التاريخ في السلم والحرب محمد – صلوات الله وسلامه عليه –.

أجل كان نبي الإسلام أعظم قادة العالم في الحرب والسلام .

الحرب التي خاضها من أجل السلام وحماية عقيدة المؤمنين.

وحرية الرأي وحماية الأموال والأنفس والأعراض ، وحفظ الكرامة ، وضمان بقاء مجتمع العدالة والإخاء والمساواة .

مكث رسول الإسلام في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادل الكفار بالتي هي أحسن لأنَّ الله – سبحانه وتعالى – هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين.

وكان المسلمون يأتون إليه بين مضروب ومجروح يشكون إليه ، فيقول لهم اصبروا فإنِّي لم أؤمرْ بقتال بعد .

لأنَّ الله تعالى ، قال له في القرآن العظيم : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

(١٢٥: النحل)



وحينما مرّ بآل ياسر ، وهم يئنون تحت سياط ولسعات نيران أمية بن خلف ، وأبي جهل بن هشام ، وقادة الشرك والجبروت والضلال ، قال لهذه الأسرة المسلمة البطلة : (اصبروا آل ياسر فإنّ موعدكم الجنة).

وتقلّدت سميّةُ زوج ياسر وسام الشهادة من الدرجة الأولى ، درجة الرفعة والخلود والبطولة ، وكذلك فعل زوجها ياسر، وحصلا على مفتاح الجنة في احتفال مهيب رائع شهدته ملائكة السموات فرحًا بأول شهيدة وشهيد في سبيل الإسلام .

وتحمل بلال بن رباح الأسود المستضعف أهوال العذاب وجبروت الطغيان ، ولذعات السياط العاوية ، والنيران المستعرة ، والصخور المحماة في أشعة الشمس الحارقة ، والتي وضعت فوق ظهره وبطنه ، وهو يردد : أحدٌ ، أحدٌ ، بصوت يهزُّ العالم بقوة إيمان أتباع محمد صلى الله عليه وسلم .

وتحمّل المستضعفون السخرية والأذى والعنت في صلابة الجبال وتحمّل القائد الأعظم والرسول الأكرم السخرية اللاذعة ، والأذى والسباب ، وإلقاء القاذورات على ظهره ، وهو ساجدٌ لربه سبحانه في عظمته .

وتحمّل القذف بالأحجار من السفهاء بالطائف حتى سال الدم من عقبيه وهو يردد في دعاء خاشع ، وطرف دامعٌ وقلب خاضع ، وجوارح مستعذبة بالعذاب في سبيل مرضاة الله سبحانه تعالى .

وفي سبيل نشر دين الرحمة والمحبة والعدالة والفطرة النقية والعقل السديد ، كان ينظر إلي السماء الصافية الزرقاء الباسمة له ، والمشعة بأنوار الجلال الإلهي والملائكة الكرام ، ويَقُولُ : { اللهم إليك أشكو ضعفَ قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني علي الناس يا أرحم الراحمين إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أو عدو ملكته أمري ، اللهمَّ إنْ لم يكن بك عليَّ غضب ؛ فلا أبالي

ولكنّ عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمـــات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بي غضبك ، أو يحل عليَّ سخطك لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك } .

وحينما نزل عليه أمين وحي السماء جبريل – عليه السلام – ومعه ملك الجبال قائلا له :

إن ربك يقرئك السلام وأرسل معي ملك الجبال ، فـــي انتظـــار كلمـــة واحدة منك ليدك ديار المشركين ، ويسحق أجساد الكافرين بقذائف من الجبال وصواعق من الرواسخ الثقال ، قال رسول الرحمة ﷺ : (إني بعثت رحمـــة ولم أبعث لعنة ، إنّـــي لأرجـــــو الله – سبحانه وتعالي– أن يخرج مـــن أصلابهم من يعبده ويوحده ولا يشرك به شيئا).

ثم رفع يديه إلى السماء قائلا :

(اللهم اهدِ قومي فإنّهم لا يعلمون).

فقال جبريل – عليه السلام– : صدق من سمَّاك الـــرؤوف الـــرحيم ، وهاجر المسلمون هجرتين إلى الحبشة بأمر الرسول الأعظم فـــرارا بـــدينهم وعقيدتهم من ظلم المشركينِ من قريش ؛ ليكونوا بجوار ملك نصراني عادل هو النجاشي .

ثم جاءت الهجرة الكبرى إلى المدينة المنورة ، وتجمع المسلمون فـــي الوطن الجديد .

ولحق بهم القائد الأعظم والرسول الأكرم – صلوات الله وسلامه عليه – بعد أن أخرجه المشركون من بلده ، وأخرجوا المسلمين من ديارهم .

وفي المدينة الفاضلة التي أنارها الله – سبحانه وتعالى– بأنوار رحمته

وصفوة رسله .

آخى الرسول القائد ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، معلناً قيام أمة الإسلام على الإيمان بالله وحده ، وإتباع شريعته الخالدة .

وعلى مبادئ الإخاء والمحبة والمساواة والعدل والشورى والرحمة والتكافل الاجتماعي.

ومعلنا القضاء على عصبية الجنس واللون والحسب والنسب ، فالكل في أمة الإسلام سواسية ، لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح.

وأمة الإسلام التي أشرقت بقيادة وتعاليم الرسول الأعظم والقائد الأكبر حملت السيف للدفاع عن حرية العقيدة لا لإرغام الآخرين على الدخول في الإسلام ، قال تعالى : ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾

(٢٥٦ : البقرة)

وكان ذلك القتال حينما اشتدت قريش في عنتها ، وتمادت في ظلمها ، وحاولت تجميع كل قبائل شبه الجزيرة العربية للقضاء على الإسلام ودولته المثالية التي قامت في المدينة المنورة ، وما حولها.

فنزل قول الله سبحانه وتعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

(٣٩/٤٠ : سورة الحج)

مبادئ الحرب في الإسلام

وضع الإسلام للحرب المشروعة مبادئ بلغت القمة في سمو الهدف لم يعرف العالم لها مثيلا من قبل ، وهي :

المبدأ الأول :

ألا يقاتل الرسول ﷺ وقواد الإسلام إلا من يقاتلهم .

المبدأ الثاني :

أن يكون هذا القتال في سبيل الله تعالى ، لا في سبيل عرض الدنيا الزائل ، أو الجاه واتساع الملك.

المبدأ الثالث :

أن لا يبدأ المسلمون العدوان على الآمنين ، قال تعالى :

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ (١٩٠ : البقرة)

المبدأ الرابع :

الإسلام دين السلام ، والحرب استثناء لتقليم أظافر المعتدين ، وكسر شوكة البغاة الظالمين ، فإذا حقق القائد المسلم هذه الغاية ورغب الأعداء في السلام فعليه أن يحقق لهم تلك الرغبة .

قال تعالى :﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ ﴾

(٦٠ : الأنفال)

المبدأ الخامس :

لا يرغم الإسلام الآخرين على الدخول فيه بالقوة ؛ لأنه الدين الوحيد الذي يكرم العقل ، ويدعو للنظر والتبصر واستخدام العقل في الإيمان بوجدانية الله تعالى ، كما أنَّه الدين الوحيد الذي يحافظ على حرية العقيدة ، قال تعالى :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ (٢٥٦: البقرة)

وعلى قواد المسلمين تخيير الأعداء قبل الحرب بين أمور ثلاثة هي :

١- شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله .

٢- دفع الجزية ليكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم .

وهي ضريبة مالية يسيرة للقادرين عليها ، تجمع لإقامة المنشآت العامة التي تخدم الجميع .

٣- الحرب لتأمين سلامة الأمة الإسلامية وردع الأعداء، ومن هنا نرى أن الحرب ليست غاية عند المسلمين ، بل هي علاج أخير إذا عزَّ علاج الإقناع بالحجة والموعظة الحسنة ، وترسيخ بناء السلام ،وحسن الجوار

المبدأ السادس :

٤- حماية النساء والأطفال والمرضى والشيوخ من القتل ، فلا يعرف الإسلام حرب الاستئصال التي عرفها اليهود ، وطبقوها على شعب فلسطين العربي ، وزعموا في كتابهم المقدس العهد القديم ، أن الله – تعالى– فرض عليهم استئصال أعدائهم من مقاتلين ونساء وشيوخ وأطفال وبهائم ومبان .

المبدأ السابع :

عدم الإجهاز على الجرحى ، بل إتاحة فرصة النجاة لهم ، والقيام بعلاجهم ، وحسن معاملة الأسرى .

المبدأ الثامن :

حماية الممتلكات الخاصة من عقارات وزروع وأموال وبهائم ، وعدم الاعتداء على الأعراض ، وعدم استباحة الحرمات .

المبدأ التاسع :

تحقيق العدل الكامل لمن يعيش في رحاب أمة الإسلام ، من غير المسلمين مثل المسلمين سواء بسواء ؛ لأنَّ المسلم يحارب لتكون كلمة الله هي العليا ، وحماية المقدسات ، وأرض الإسلام ، فإذا وضعت الحرب أوزارها فالكل إخوة في الإنسانية ، المنتصر والمهزوم ، يشمل الإسلام الجميع برعايته وشريعته السمحة ، فهل عرف العالم في كل تاريخه مثل هذه المبادئ العظيمة الرحيمة ؟! قبل إشراق نور الإسلام ، وظهور محمد أعظم الرسل والأبطال ؟!..

(سرايا رسول الله صلي الله عليه وسلم في السنة الأولى من الهجرة)

تعريف السرايا :

السرية هي فرقة من الجيش تخرج لهدف حدده لها الرسول الأعظم - صلوات الله وسلامه عليه - ولم يخرج الرسول القائد علي رأسها ، بل يعين قائدا بدلا منه .

تعريف الغزوات :

الغزوة : قوة من المسلمين يخرج الرسول القائد على رأسها لتحقيق أهداف لصالح الإسلام والمسلمين ، وحماية حرية العقيدة لأمة الإسلام الناشئة .

"عدد السرايا في السنة الأولى":

بلغ عددها ثلاث سرايات هي :

١- **سرية حمزة بن عبد المطب:** في شهر رمضان من السنة الأولى من الهجرة ، وكان عدد أفرادها ثلاثين راكبًا ، وكلفها الرسول القائد باعتراض قافلة لقريش على ساحل البحر الأحمر بقيادة أبي جهل عدو الإسلام الأكبر.

٢- **سرية عبيدة بن الحارث** : عدد رجالها ثمانون فارسًا من المهاجرين ، كلفها القائد الأعظم باعتراض قافلة لقريش ببطن رابغ قرب العيصي ، وكان على رأس قافلة قريش أبو سفيان بن حرب في مائتي مقاتل من قريش ، وقد تناوش الفريقان بالسهام ، وتقهقر المشركون ولم يطاردهم المسلمون ، وفرَّ من المشركين المقداد بن الأسود وعتبة بن غزوان ، حيث لحقا بالمسلمين وأظهرا إسلامهما ، وقد أطلق في هذه السرية أول سهم في سبيل الله ، وأطلقه سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - وكان خروج هذه السرية في شوال.

٣- **سرية سعد بن أبي وقاص** : عدد أفرادها ثلاثون من المهاجرين ، وكلفها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - باعتراض قافلة لقريش في الخرار قرب الجحفة ، وحينما وصلوا إلى المكان المحدد لهم ، وعلموا بمرور القافلة في اليوم السابق لحضورهم ، رجعوا إلى المدينة ؛ لأن الرسول القائد أمرهم بعدم مجاوزة هذا المكان.

الغاية من هذه السرايا
والرد على أكاذيب المستشرقين

يري بعض المستشرقين أن الهدف من هذه السرايا الأولى :

هو نهب تجارة القوافل ؛ لأن النهب كان من طباع أهل البادية ، وأن أهل المدينة إنما أغرتهم الغنيمة والسلب بإتباع محمد علي خلاف عهدهم في العقبة ، والرد سهل علي هؤلاء الحاقدين على الإسلام من أحفاد الصليبيين الذين أوقعهم الهوى والحقد في تناقض لا يتفق مع التحقيق العلمي المنصف :

أولا : أهل المدينة ليسوا من البادية حتى يكون النهب والسلب من طباعهم ، بل هم مجتمع زراعي وتجاري مستقر.

ثانيا : أن هذه السرايا الأولى لم يشترك فيها أنصاري واحد ، ولو كانوا اتبعوا الرسول القائد من أجل الغنائم الدنيوية لطلبوا منه تكوين سرايا للاستيلاء علي أموال العرب جميعا ليس على أموال قريش وحدها ، فيدل عدم اشتراكهم في السرايا الأولى ، وعدم طلبهم تكوين سرايا للاستيلاء على أموال قريش والعرب على تمسك الرسول القائد ببنود معاهدة العقبة وهدم أكاذيب المستشرقين .

ثالثا : ولم يكن الهدف من هذه السرايا هو الاستيلاء على أموال قريش ، ولو كان هذا هو الهدف ، لما تراجع قواد السرايا عن الاشتباك مع حراس القوافل القرشية والقضاء عليهم ، والاستيلاء على أموالهم تنفيذا لأوامر الرسول القائد ﷺ ؛ لأن أوامر الرسول القائد مقدسة يتعبد المسلمون بتنفيذها ، ويعاقبون بتعطيلها ؛ فيدل تراجع السرايا عن مطاردة القوافل والاستيلاء عليها ، دلالة قاطعة على أن هذه السرايا لم يكن الهدف منها الاستيلاء على أموال قريش .

رابعا : ولو كان الهدف من هذه السرايا الاستيلاء على أموال قريش وقوافلها لخرج الرسول القائد بنفسه على رأس قواته ، كما حدث بعد ذلك في بدر.

خامسا : قلة عدد أفراد هذه السرايا يدل أيضا دلالة قاطعة على أن الهدف منها لم يكن الاستيلاء على أموال قريش وتجارتها كما زعم الحاقدون على الإسلام من المستشرقين .

أسباب هذه السرايا:

ولا شك أن الهدف من هذه السرايا في فكر الرسول القائد – صلى الله عليه وسلم– كان تحقيق عدة نتائج هي :

أولا : إرهاب قريش بإفهامها أن نشاطها التجاري إلى الشام الذي تتوقف عليه حياتها الاقتصادية والمعيشية والعمرانية أصبح الآن تحت سيطرة المسلمين ؛ لأنهم بموقعهم الاستراتيجي الخطير يتحكمون في طرق تجارتهم إلى الشام .

ثانيا : شن حرب نفسية على قريش لتحطيم معنوياتها ، ردًّا على حربهم النفسية التي يشنونها على المسلمين طوال ثلاثة عشر عاما ، ولحمل قريش على التفكير والتبصر في عاقبتها إذا استمرت في محاربة الإسلام وإرادة القضاء عليه.

ثالثا: رفع الروح المعنوية للمسلمين ، وإفهامهم عمليا أن الهجرة من مكة إلى المدينة ، لم تكن فرارا من مواجهة قريش عسكريا ، بل كانت لتجميع صفوف المسلمين ، وتكثيف قدرتهم العسكرية ، وبناء أمتهم على مبادئ الإسلام العظيمة ، دون مضايقة من أعدائهم ، وتسللهم بينهم لمعرفة

أسرارهم ، بدليل مواجهة السرايا في قلة أفرادها لحراس المشركين مع كثرتهم ، وعدم تهيب الاشتباك معهم .

رابعا : تدريب المسلمين عمليا على مواجهة أعدائهم في مواقع استراتيجية متعددة ، حتى يمكن للمهاجرين استكشاف تلك المواقع المحيطة بأمتهم النامية .

خصوصا وأن الأنصار عندهم معرفة كاملة بالمناطق المحيطة بالمدينة ؛ لأنها بلادهم شبوا فيها ، وجاسوا حولها.

خامسا : تعويد المسلمين علي التخطيط والتنفيذ للعمليات العسكرية استعدادا لمواجهة أعداء دينهم في مقبلات الأيام .

لأنّ القائد الأعظم – صلوات الله وسلامه عليه – كان متيقنا من أن الحرب مع أعداء الإسلام من العرب ، وغير العرب قادمة لا شك فيها ، حتى يظهر الله دينه ، ولو كره المشركون .

لم تكن هذه السرايا إذن للاستيلاء على أموال قوافل قريش وإلاّ حقق أفراد السرايا ذلك ، ولو استشهدوا جميعا ، تنفيذا لإرادة الرسول ﷺ ولو كان الهدف منها ذلك لعاتبهم رسول الله ﷺ على رجوعهم دون تحقيق أهدافه ولم يثبت ذلك ، فدل هذا على خطأ المستشرقين ، وخطأ من ذهب من مفكري المسلمين إلى هذا الرأي بحجة استرداد المسلمين لبعض أموالهم التي نهبت بمكة .

وإذن كانت هذه السرايا للحرب التعرضية التي هي بين الدفاع والهجوم بدليل اصطفاف سرية حمزة بن عبد المطلب للقتال مع قافلة أبي جهل ، وبدليل اشتباك سرية عبيدة بن الحارث بحراس قافلة أبي سفيان بن حرب .

ولم تكن هذه السرايا للحرب الهجومية ؛ لأنّ الإذن بالحرب الهجومية

نزل في أوائل السنة الثانية من الهجرة ، في قوله تعالى :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ (٣٩-٤١ : الحج)

وكانت هذه الآيات أول ما نزل في القتال كما يقول عبد الله بن عباس ، كما رواه الحاكم في المستدرك ، وكما رواه عبد الرازق وابن المنذر عن الزهري .

وبهذا الرأي ينحل التناقض الذي وقع فيه بعض علماء الإسلام من قولهم : إن هذه السرايا لم تكن للحرب ؛ لأن الإذن بالحرب لم يكن قد نزل بعد ، فيا سبحان الله ! .. كيف لا تكون للحرب مع أنها قد اشتبكت في الحرب فعلا كما رأينا في سرية عبيدة بن الحارث.

وكانت سرية حمزة بن عبد المطلب على استعداد للحرب كما رأينا أيضا ، ثم كيف يحشد قائد عظيم مثل الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – قواته ويعرضها لعدو حاقد ثم يكتف أيديهم بعدم مشروعية الحرب ؟!

أليس في هذا العمل قضاء علي المسلمين ودعوة للانتحار لنخبة ممتازة من خيار المقاتلين؟! .. وهذا لا يمكن أن يصدر من قائد حقيقي فضلا عن محمد رسول الإسلام أعظم قواد التاريخ .

وماذا إذن كان يريد الرسول القائد بحشد هذه السرايا إذا كان لا يسمح

لها بالحرب عند الضرورة ؟! ...

أكان يريد بها الاستعراض العسكري؟!. إن الاستعراض العسكري مع الإذن بالقتال لا يكون على قيد خطوات من العدو الحاقد ، ولا يكون بقوات قليلة أمام قوات كثيرة العدد ، ولو فرضنا جدلا أن الرسول القائد كان يريد الاستعراض العسكري ؟ فهل الاستعراض العسكري لا يضع قائده المسئول عنه احتمال الاشتباك مع العدو ، ولو بنسبة واحد في المائة ؟! ..

ثم كيف يقول هذا العالم المسلم إن هذه السرايا كانت لمعاقبة المشركين والحصول على ما يمكن الحصول عليه من تجارتهم نظير ما أخذوا من أموالهم وما ظلموهم ، ولإضعاف شوكتهم ؛ فإنَّ المال عصب الحياة ؟!..

ثم يقول إنها أي السرايا لم تكن للحرب فمن أين يتأتى العقاب إذن؟!.. وكيف يسترد المال دون قوة ؟!..

لقد وقع هذا العالم الجليل في هذا الخطأ ؛ لأنه لم يستطع التفرقة بين الحرب التعرضية الهجومية الدفاعية – المسموح بها للسرايا في السنة الأولى وبين الحرب الهجومية التي نزل بها الإذن من الله – تعالى– في الآيات السابقة ، الحرب الهجومية المباغتة للعدو التي قام بها بعد ذلك الرسول القائد ضد بني المصطلق وقريش في فتح مكة وخيبر وتبوك وحنين ، وتدل هذه السرايا على عظمة القيادة العسكرية عند الرسول القائد ، وشمول نظرته الاستراتيجية لميادين الصراع كافة بينه وبين أعدائه .

فقد استغل بمهارة فائقة موقع المدينة الاستراتيجي خير استخدام لبث الرعب في قلوب قريش بتهديدهم في طرق تجارتهم إلي الشام.

وتدل كذلك على عظمة الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – من الناحية الأخلاقية ووفائه بنصوص المعاهدة التي وقعها مع الأنصار بالعقبة ،

حيث لم يخرج في هذه السرايا إلا المهاجرون.

لأنَّ المعاهدة تنص على حماية الأنصار للرسول فقط ، إذا هوجمت المدينة.

وتعديل المعاهدة يحتاج إلى موافقة الأنصار كما نرى ذلك في غزوة بدر فيما بعد .

وتدل كذلك علي عظمة الرسول السياسية حيث جعل علي رأس كل سرية من هذه السرايا رجلا من أقرب الناس إليه .

إشارة إلى أن آل رسول الله ﷺ في مقدمة الصفوف عند الخطر دفاعا عن الإسلام ، وإعلاء لكلمة الله .

وفي هذه الإشارة حفز للهمم ، وبعث للشجاعة في قلوب المسلمين وإثارة للتنافس في التضحية والبذل من أجل نصرة العقيدة ، وبلغ الرسول القائد غاية الحنكة السياسية بإرسال هذه السرايا ، لإفهام قريش أنها إذا استمرت في حرب الإسلام ، ومصادرة حرية العقيدة عند المسلمين ، فعليها أن ترسل مع كل قافلة جيشا ضخما لحمايتها.

ومعروف في قانون التجارة وأوضاع الحرب ما يعنيه تعبئة جيش ضخم من تكاليف باهظة ، تأكل كل أرباح التجارة ، وتتجاوز الأرباح إلى رأس المال ، وهنا استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم خبرته التجارية في أعماله العسكرية وحروبه النفسية على قريش .

وتدل هذه السرايا على حبِّ المسلمين للسلام وتعففهم عن الغنائم مع حقهم الكامل في استرداد أموالهم المنهوبة منهم في مكة ، بكل الوسائل ، وقدرتهم على استردادها .

الغزوات والسرايا في السنة الثانية من الهجرة

في السنة الثانية للهجرة تغير الموقف العسكري تماما ، فقد نزل الإذن الإلهي بالحرب الهجومية في قوله تعالى :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾

(٣٨ : الحج) إلي آخر الآيات السابقة.

وحينما نزل الإذن بالحرب الهجومية في بداية السنة الثانية للهجــرة ، خرج الرسول القائد على رأس قواته ، وتعمد وصول أخبار خروجه لقــواد قوافل قريش – وهو المعروف بالكتمان الغامق الحذر كما سنعرف فيما بعد :

وذلك لتكثيف الحرب المعنوية على قريش ، وإلقاء مزيد من الرعب في قلوبهم ، وليتفقد المواقع الاستراتيجية المحيطة بالمدينة والقريبــة مــن أمــة الإسلام المشرقة على العالم ، ولاكتساب القبائل القريبة إلى صف المسلمين ، وذلك بعد معاهدات دفاع مشترك وحسن جوار وسلام كما حدث في غزوات ودان ، وبواط ، والعشيرة .

ولم يكن خروج رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – فــي هــذه الغزوات وكذلك السرايا التي أرسلها في السنة الثانية بقصد الاستيلاء علــى الغنائم كما ذهب إلى ذلك جميع الباحثين.

باستثناء غزوة بدر الأولى التي كانت لرد عدوان وقع على المــسلمين من المشركين.

وباستثناء غزوة بدر الكبرى التي كانت بقصد تنفيــذ التهديــدات الــسابقة بالاستيلاء على هذه الغنيمة الكبرى من أموال قريش ، أو تحقيــق النــصر العسكري الساحق على غرورهم وجبروتهم وظلمهــم ، والــدليل علــى أن

السرايا والغزوات في السنة الثانية لم تكن للحصول على الغنائم أن الرسول القائد لم يحط تلك الغزوات بالسرية الكاملة ، وهو المعروف بالكتمان الدقيق العميق ، وهو القائل استعينوا علي قضاء حوائجكم بالكتمان ، وهو القائل في فتح مكة (**اللهم خذ الأخبار عن قريش حتى نبغتها في دارها**)(موطأ مالك)

ولكن وصول أخبار تحركات السرايا والغزوات السابقة على بدر لقوافل قريش يدل على الحكمة من تلك الغزوات والسرايا.

وقد يقول قائل ولكن سرية عبد الله بن جحش أحيطت بالسرِّية الكاملة واستولت على غنائم لقريش ، والجواب أن السرِّية كانت لازمة ؛ لأن السَرِية كانت قريبة من مكة مع قلة عدد جنودها ، وأن الهدف منها كان الاستكشاف لتحركات قريش ، والحرب المعنوية على قوافلها.

ولا يعقل أن يكون القصد من هذه السرية الاستيلاء على القوافل مع قلة عدد أفرادها ، ومع هذا شاء الله – تعالى – أن تحقق هذه السرية المباركة أول ضربة عملية لقوافل قريش التجارية.

وأن تكون هذه الضربة التي وقعت من غير تعمد سببا في رفع الروح المعنوية للمسلمين ، وضرب كبرياء قريش ، ونزول آيات مباركات ترسم طريقا جديدا في المواجهة بين المظلومين والضالين على مدى العصور.

والدليل على ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لقائد السرية عبد الله بن جحش في كتاب التكليف السري الذي يحمله ، والذي أمره بعدم فتحه ومعرفة ما فيه إلا بعد يومين من الخروج من المدينة ، قال الرسول القائد في الأمر التكليفي العسكري (امضِ حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم).

وهذه السرية – سرية عبد الله بن جحش – كانت السرية الوحيدة في السنة الثانية من الهجرة التي لم يخرج على رأسها الرسول القائد .

وكانت مهمتها سرية ؛ لأنَّ هدفها كان شبيها بأهداف قوات الكوماندوز المعاصرة ، أي مفاجأة العدو في مكان لا يتوقع العدو ظهور المسلمين فيه.

وذلك لتكثيف الحرب النفسية والمعنوية على قريش ، وإفهام قادتها أنَّ تجارتها إلى اليمن مهددة كما أنَّ تجارتها إلى الشام مهددة أيضا ، وأنَّ في إمكان المسلمين القضاء عليهم اقتصاديا لو أرادوا بقطع طرق تجارتهم إلى اليمن والشام .

وهما الرحلتان اللتان نوَّه الله بهما في قوله تعالى : ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾(٤/١: قريش)

وكان هدف السرية المباركة أيضا استطلاع أحوال قريش التجارية والسياسية من أقرب مكان منهم .

والذين يقولون إنَّ هذه السرايا والغزوات التي وقعت في السنة الأولى والسنة الثانية ، كان هدفها الاستيلاء على أموال قريش ، يؤيدون من حيث لا يقصدون مزاعم المستشرقين ، وأعداء الإسلام ، بأن الاستيلاء علي الأموال ، ونهب القبائل هو الذي دفع المسلمين إلى إتباع محمد ؛ لأن البدو أهل حروب وقطع طرق ونهب أموال ، بل ذهب بعض الصليبيين عليهم لعنة الله بأن محمدا كان زعيم عصابة لقطع الطرق .

والعجيب أن الله – سبحانه وتعالى– حمى المسلمين ورسوله الكريم من هذه الأكاذيب قبل قولها بمئات السنين.

فلم يمكن الله – سبحانه وتعالى– المسلمين من الاستيلاء على أي مال

لقريش أو لقبائل العرب الأخرى – باستثناء سرية عبد الله بن جحش – في غير حرب عادلة يخوضها المسلمون ضد أعدائهم.

وذلك حتى لا يدع الله العليم الحكيم مطعنا من أي وجه في دينه الذي ارتضاه لخلقه جميعا .

أما سرية عبد الله بن جحش التي قاتلت في الشهر الحرام رجب واستولت على غنيمة من أموال قريش فهي لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى ، وبينها لقريش ولغيرها ، وهي أن الصد عن دين الله الحق لمن يريد الاهتداء بنوره والكفر بالله الخالق ، وإلغاء قداسة المسجد الحرام بعبادة الأوثان والأصنام فيه وإخراج المسلمين من ديارهم ، والاستيلاء علي أموالهم ، وفتنة المسلمين في دينهم بكل الطرق ليرتدوا عن دينهم بعد أن خلعوا أغلال الشرك من أعناقهم كل هذا أكبر وأعظم من القتال في الشهر الحرام ضد أعداء الله المعتدين الظالمين .

ويدل تعنيف الرسول القائد والمسلمين لأفراد هذه السرية لقتالهم في الشهر الحرام قبل نزول آيات القرآن المنيرة في هذه الحادثة ، يدل ذلك على أن الغنائم لم تكن هدفا للمسلمين في سراياهم وغزواتهم قبل بدر الكبرى ، وإلاّ لفرحوا بحصول سرية عبد الله بن جحش على أول غنيمة من المشركين .

وهذا يؤيد تماما ما ذهبت إليه من أن الغنائم لم تكن أبدا هدف المسلمين الأعظم الذي لا هدف لهم سواء ، كما ذكرت في الأدلة الكثيرة السابقة.

ونستعرض الآن هذه الغزوات والسرايا حتى غزوة بدر الكبرى التي كانت نقطة تحول في تاريخ الإسلام ، وكانت فاصلة بين عهدين من التاريخ العالمي .

١- غزوة الأبواء :

هي أول غزوة قام بها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم ، حيث خرج علي رأس قواته .

زمنها : شهر صفر.

هدفها : اعتراض قافلة لقريش .

وقد استخلف رسول الله ﷺ علي المدينة سعد بن عبادة زعيم الخزرج ﷺ وأعطى اللواء لعمه أسد الله ، وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب.

مكاسب المسلمين في هذه الغزوة

أولا : إفهام قريش باعتراض قافلتها أن الرسول القائد علي استعداد تام لمواجهتهم عسكريا ، وقطع طرق تجارتهم إلى الشام ، لو أراد ذلك ، وقد هربت القافلة بعد أن فهمت ذلك .

ثانيا :عقد المسلمون معاهدة أمن ودفاع مشترك مع قبيلة بني ضمرة من أكبر القبائل في ودان بالقرب من الأبواء ، علي أهم طريق لقريش إلى الشام ، وكانت هذه المعاهدة ضربة سياسية قاسية لقريش ، وهي أول معاهدة يعقدها الرسول القائد مع غير اليهود بعد الهجرة .

نص المعاهدة :

بنو ضمرة آمنون من قبل المسلمين علي أنفسهم ، ولهم النصر على من هاجمهم ، وعليهم نصر المسلمين ، إذا دعاهم المسلمون لنصرتهم).

٢- غزوة بواط :

خرج فيها الرسول القائد علي رأس مائتين من الأنصار والمهاجرين لاعتراض عير لقريش قدرها ألفان وخمسمائة بعير بقيادة أمية بن خلف ، وقد علم الرسول القائد بقدومها من الشام .

زمن الغزوة : ربيع الأول

نائب الرسول على المدينة : سعد بن معاذ زعيم الأوس.

حامل لواء الرسول في هذه الغزوة : سعد بن أبي وقاص.

وصل الرسول القائد ﷺ إلى بواط ، ووصلت أخبار خروج الرسول إلى أمية بن خلف فأسرع بالهرب مع قافلته خوفا من المسلمين.

ونلاحظ في الغزوتين عدم حرص الرسول القائد على السِّريةِ في تحركاته ؛ لأنَّ الهدف هو الحرب النفسية والمعنوية ، وليس الاستيلاء على الأموال ، ونلاحظ أيضا عدم مطاردة الرسول القائد للقافلتين بعد هروبهما منه ، ولو كان الهدف الاستيلاء على الأموال لطاردهما .

كما نلاحظ في الغزوتين أيضا : حسن سياسة الرسول القائد حيث استخلف في هذه الغزوة الأخيرة سيد الأوس سعد بن معاذ ، وكان قد استخلف على المدينة في الغزوة الأولى سيد الخزرج سعد بن عبادة .

وذلك توجيها للتنافس التقليدي بين القبيلتين لنصرة الإسلام ، وإظهارا لمكانتهما العظيمة عند رسول الله ﷺ ، وكانت هذه الغزوة – بواط – هي أول غزوة يخرج فيها الأنصار مع المهاجرين .

٣- غزوة العشيرة :

خرج الرسول القائد في هذه الغزوة لاعتراض قافلة ضخمة لقريش متجهة إلى الشام بقيادة أبي سفيان بن حرب.

حامل لواء الرسول : عمه حمزة بن عبد المطلب ﷺ .

خليفته على المدينة : أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي القرشي المهاجر إلى الحبشة والمدينة ، وأخو رسول الله من الرضاع ، وابن عمته .

وصل الرسول القائد إلى العشيرة ، فوجد القافلة ، قد هرب بهـا أبـو سفيان ولم يطارد الرسول القائد القافلة ؛ لأنَّ الهدف ليس الاستيلاء على الأموال كما ذكرنا سابقا.

مكاسب المسلمين من هذه الغزوة :

عقد المسلمون معاهدة دفاع وأمن مشترك مع قبيلة بني مدلج وحلفائها ، وهي قبيلة كبيرة تقيم على طريق مكة الشام التجاري .

فكانت ضربة سياسية أخرى لقريش ، حيث حرمها الرسول القائد من معونة هذه القبيلة ، كما حرمها من معونة بني ضمرة من قبل في غزوة الإبواء .

٤- غزوة بدر الأولى :

سبب هذه الغزوة :

هو مطاردة الرسول القائد ، لكرز بن جابر الفهري الذي أغار على مراعي المسلمين بالمدينة بقصد النهب والسلب.

خليفة رسول الله في المدينة : هو زيد بن حارثة الذي كان عبدا لرسول الله ثم تبناه الرسول بعد عتقه ، وذلك قبل الرسالة وتحريم التبني .

حامل لواء الرسول القائد : ابن عمه البطل الصنديد علي بن أبي طالب.

ووصل الرسول القائد إلى وادي سفوان بالقرب من بدر ، ولكنه لم يدرك جابرا الذي تمكن من الهرب .

ونلاحظ في هاتين الغزوتين الثالثة والرابعة ، أن الرسول القائد قد بلغ ذروة الإنصاف والعدل والحنكة السياسية :

حيث أرضى المهاجرين في الغزوة الثالثة باستخلاف القرشي أبي سلمة ابن عبد الأسد المخزومي علي المدينة.

كما أرضى المهاجرين الموالي (وهم من كانوا عبيدا فحررهم الإسلام من الرق والعبودية) باستخلاف زيد بن حارثة على المدينة.

كما أنه أرضى الأنصار من الخزرج في الغزوة الأولى باستخلاف سيدهم سعد بن عبادة على المدينة .

وأرضي الأنصار من الأوس في الغزوة الثانية باستخلاف سيدهم سعد بن معاذ على المدينة.

وبذلك برهن الرسول القائد على قضاء الإسلام علي العصبية الجنسية والتمايز العنصري.

وأن المسلمين يحملون حقا راية العدل والإخاء والمساواة والتوحيد كما برهن الرسول لأعدائه على قدرته الساحقة في رد العدوان في سرعة وحسم من أي قوة كانت ، ومن أي جهة جاء.

٥- سرية عبد الله بن جحش :

زمن السرية : رجب

قائدها : عبد الله بن جحش القرشي المهاجري ابن عمة رسول الله ﷺ

عدد أفرادها : ثمانية .

وتمتاز هذه السرية بأن الرسول القائد أعطى كتابا مغلقا لقائدها وطلب منه عدم فتحه إلا بعد يومين ، فإذا فتحه فعليه أن يسير للوجهة التي حددها له الرسول القائد ﷺ كما أن على قائدها أن لا يكره أحدا من أصحابه على السير معه .

وبعد يومين من التحرك فتح القائد المظروف ؛ فإذا فيه هذا الأمر العسكري من القائد الأعظم محمد ﷺ ، كتَبَ فيه :

" إذا نظرت كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم " .

فلما قرأ القائد كتاب الرسول ﷺ على أصحابه قالوا : جميعًا سمعا وطاعة لأمر رسول الله ﷺ ، ولم يتخلف منهم أحدٌ .

وفي المكان المحدد للسرية ، وصلت قافلة لقريش يحرسها عمرو بن الحضرمي وثلاثة معه.

وقد ظنَّ القرشيون الأربعة أن أفراد السرية في طريقهم إلى بيت الله لأداء العمرة ، فاطمأنُوا لهم ، ونزلوا بجوارهم ، وكان اليوم هو آخر رجب الشهر الحرام .

فتشاور المسلمون في أمرهم ، ورأوا أن لا تفلت هذه القافلة منهم حتى ولو كان القتال في هذا الشهر الذي يحرم فيه القتال ، فنشبت معركة قصيرة قتل فيها القائد حراس القافلة عمرو بن الحضرمي ، وأسر اثنان ، وهرب الرابع ، وعاد المسلمون بالغنائم ، والأسيرين إلى المدينة المنورة .

غضب الرسول القائد علي أفراد السرية :

فغضب الرسول الأعظم غضبا عاتيا علي أفراد السرية لقتالهم الكفار في الشهر الحرام قائلا (ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام).

وأبقى القافلة علي حالها وكذلك الأسيرين منتظرا حكم الله سبحانه وتعالى .

ولام المسلمون أفراد السرية أشد اللوم ، لقتالهم في الشهر الحرام .

وشنت قريش حربًا دعائية صاخبة على المسلمين الذين استباحوا القتال في الشهر الحرام ، وسفكوا الدماء ، وأخذوا الأموال ، وأسـروا الرجـال ، وكان قصد قريش من ذلك تحطيم سمعة المسلمين أمام الرأي العام العربـي في الجزيرة العربية .

وكذلك إثارة السخط على المسلمين ، وتخويف القبائل العربية من هـذا الخطر الذي لا يراعي حرمة الأشهر الحرام .

وقام اليهود والمنافقون بنشر دعاية قريش المسمومة على أوسع نطاق .

وعانى المسلمون محنة قاسية مظلمة من جراء هذا الخطـأ الفـاحش ، حتي نزل قول الله – سبحانه وتعالى– :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (٢١٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨) ﴾ (٢١٨/٢١٧:البقرة) .

فبين الله سبحانه وتعالى : أن القتال في الشهر الحرام وإن كـان ذنبـا عظيما ، ولكنه ليس أعظم من ذنوب قريش العظمي التي تقترفها فـي حـق المسلمين ، وفي حق الإسلام.

من الصدّ عن دين الله الحق ، والكفر بالله وبرسوله وبدينـه ، ونـزع قداسة البيت الحرام بالأصنام المعبودة فيه ، وفتنـة المـسلمين فـي ديـنهم

لإرغامهم علي الارتداد عن دينهم ، وتصميمهم علي قتال المسلمين بكل الوسائل حتي يعودوا إلي الكفر بعد الإسلام ، ثم بين رب العزة مغفرته ورحمته للمهاجرين من المؤمنين الذين جاهدوا في سبيل الله وحماية دينه ورفع رايات التوحيد .

فوزع الرسول ﷺ الغنائم ، وقد سُرَّ وسُرَّ المسلمون لحكم الله – سبحانه وتعالى– وذهب عنهم الحرج ، ومات الألم ، وافتدت قريش أسيريها ، فقبل الرسول القائد الفداء ، واكتسب الإسلام واحدا من الأسيرين هو الحكم بن كيسان الذي أسلم بمحض حريته ، وأقام في المدينة بخالص رغبته ، حتى استشهد يوم بئر معونة – رضي الله عنه–.

ويلاحظ في هذه الغزوة ما يأتي :–

١– السرية المطلقة التي أحاط بها رسول الله ﷺ تلك السرية ، وذلك لقلة عدد أفرادها من ناحية ، وقربها من مكة من ناحية أخرى ، فلو وصلت أخبارها لقريش لتعرضت للإبادة عن بكرة أبيها ، وهذا يدل على مهارة الرسول القائد ، وسبقه لقواد العالم في وضع كتاب العمليات السري الذي لم يعرف إلا في القرن العشرين.

٢– كانت مهمة السرية جمع المعلومات عن قريش عن قرب ، وهذا يدل علي عظمة الرسول القائد ، حيث كان يهتم اهتماما عظيما بجمع كل المعلومات السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والمعنوية عن العدو ، وعلى ضوء هذه المعلومات يضع خططه المضادة ، وهذا سبق آخر للرسول القائد على كل قادة التاريخ العظام .

٣- لم يكن الهدف من هذه السرية الاستيلاء علي المغانم ، وهذا يؤكد ما ذهبت إليه من أن الحصول علي الغنائم لم يكن هدفا مطلقا للرسول القائد قبل غزوة بدر.

٤- لم يكن الهدف من هذه السرية شن الحرب النفسية والمعنوية فقط علي قريش لإرهابها بتهديد هذا الطريق الجديد من طرق تجارتها ، بل كان الهدف منها أيضا جمع المعلومات لقرب المواجهة الحاسمة مع قريش في بدر وغيرها.

٥- الإسلام لا يدخل الناس فيه بالسيف كما يردد أعداء الحق من المبشرين بالشرك النصراني ، فقد قبل الرسول القائد الفداء في الأسيرين ، وقبل ردهما علي كفرهما لقومهما ، وقد أسلم أحدهما بكل حريته واختياره وهذا يهدم مزاعم أعداء الإسلام من أساسها .

غزوة بدر الكبرى مفترق بين عصرين ، وفاصل بين تاريخين :

هذه الغزوة العظيمة هي مفترق بين عصرين وفاصل بين تاريخين حيث قرر الرسول القائد ضرب قريش ضربة عظيمة تعيدها لصوابها، وتلوي أعناقها للتفاهم مع المسلمين ، وتخفف ضغطها علي المستضعفين الذين يرغبون في الإسلام .

وقد أصبحت الظروف مواتية للمسلمين تماما لإنزال هذه الضربة بقريش بعد أن مهد لها بالسرايا والغزوات السابقة.

والمعاهدات المبرمة مع القبائل المقيمة علي طريق مكة – الشام التجاري الاستراتيجي.

وبعد الإذن من الله تعالى بالحرب الهجومية في قوله تعالى :

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩ : الحج)

وهنا يقول كل من كتب في هذا الموضوع : إن الرسول ﷺ حينما علم بقدوم القافلة العظيمة التي تحمل أموال قريش من الشام بعد أن فرَّ بها أبو سفيان بن حرب من أمام الرسول القائد وجيشه الشجاع في غزوة العشيرة قال للمسلمين : (هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعلّ الله أن ينفلكموها).

وأنه حينما وصل بقواته إلى وادي الروحاء ، وعلم بخروج قريش في جيش كبير لحماية أموالهم شاور الصحابة في الموقف قائلا:

(أيها الناس إنَّ الله وعدني إحدى الطائفتين أنَّهَا لكم إمَّا العير وَإمَّا النفير).

والذي أومن به أن هذا القول خطأ بنص القرآن الكريم ، وأن الرسول القائد ﷺ أخبر المسلمين قبل الخروج بأنه يريد توجيه ضربة قاصمة لقريش بالاستيلاء علي القافلة العظيمة العائدة من الشام ، وأن قريشا ، ولها عيونها بين القبائل علي طريق الشام ، سوف تسارع للقتال دفاعا عن أموالها ، وأن الله تعالي وعده بإحدى الحسنيين ؛ إمَّا الغنيمةُ ، وَإمَّا النصر .

ولما كان المسلمون مازالوا قلة ، وقد أيقنوا أن قريشا سوف تحشد كل قواتها في هذه المعركة الفاصلة .

فقد كَرِهَ الأنصار التعرض لهذه الحرب الهجومية غير المتكافئة ؛ لأنهم كانوا يفضلون الحرب الدفاعية ؛ ولأن لهم تاريخا حافلا في الانتصار في الحروب الدفاعية .

فلم يهاجم المدينة أحد علي مرّ تاريخها واستطاع التغلب علي أهلها ، كما أنهم يخافون من الهزيمة فيصيب الأذى الرسول ﷺ وقد تعهدوا في

معاهدة العقبة الكبرى بحمايته والدفاع عنه ، فتسقط مكانتهم أمـام العـرب جميعا وأمام قريش ، واليهود خاصة .

أما المهاجرون فكانوا يرغبون رغبة ملحة في التعرض لقـريش فـي حرب هجومية يحققون فيها :

١- إمَّا لاسترداد بعض أموالهم التي تركوها في مكة.

٢- وإما النصر على هؤلاء الذين أذاقوهم في مكة صنوف الأذى ، وألوان الاضطهاد ، ولم يكتفوا بهذا حتي أخرجوهم من ديارهم ، وحرمـوهم من مراتع صباهم ، وخير مكان قدسه الله تعالى .

والدليل على ما ذهبت إليه في قوله تعالى :

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝ ﴾ (٥/٦ : الأنفال)

فإن كراهة بعض المؤمنين ، وهم الأنصار للخروج لهذه الغزوة يـدل علي ما ذهبت إليه من أن الرسول القائد ﷺ أخبرهم أن الحرب مؤكدة مـع قريش بكل قوتها .

وإلا فلو كان أخبرهم فقط بالحصول علي الغنمية ما كـان هنـاك أي كراهية من قبل الأنصار ، بل كان يجب أن يكون هناك موجة عارمة مـن السرور ؛ لأنَّ القافلة فيها بضائع بخمسين ألف دينـار ، وحراسـها قلـة ، فالحصول عليها من السهولة إذن بمكان .

كما أن جدالهم في الخروج لهذه الغزوة يدل دلالة قاطعة علي إخبـار الرسول القائد ﷺ بترجح جانب الحرب مع قريش .

فلو كان الإخبار بالحصول على الغنيمة فقط دون قتال فلم كان الجدال إذن ؟ !......

ولكن الأنصار في النهاية ما كان لهم أن يخالفوا أوامر القائد الأعلى في الخروج فخرجوا ، وحينما تأكد الرسول القائد بخروج قريش كما توقع تماما في جيش ضخم ، وأن القتال بين المسلمين وقريش أصبح متيقنا شاور أصحابه .

وهو يريد موافقة الأنصار ؛ لأنَّ المعاهدة التي عقدها معهم في العقبة تنص على الدفاع عن الرسول ﷺ في المدينة لا خارجها .

وهنا أصبحت الحرب وشيكة الوقوع خارج المدينة ، فعلى الأنصار التكلم :

إما بالموافقة علي القتال أو الانسحاب إلى داخل المدينة .

ولهذا روى الإمام مسلم عن أنس أن الرسول ﷺ حينما استشار أصحابه :

تكلم أبو بكر فأعرض عنه ، وتكلم عمربن الخطاب فأعرض عنه وقال:

أشيروا عليَّ أيها الناس ، فقام سعد بن أبي عبادة ، ممثل الأنصار وزعيم الخزرج قائلا : كأنك تريدنا يا رسول الله .

قال : نعم ، قال : والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخوض البحر بها – أي الخيل – لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا . قال : فندب رسول الله ﷺ الناس ، فانطلقوا حتي نزلوا بدرا .

وهذا الحديث أيضا الذي رواه الإمام مسلم يدل على ما ذهبت إليه من إخبار الرسول القائد بترجيح الحرب مع قريش ، أن الحديث يقول في بدايته:

(إن الرسول ﷺ شاور أصحابه حين بلغه إقبال أبي سفيان) فلو كان احتمال الحرب غير راجح فما معنى المشاورة إذن ؟!..

ثم إن الرسول القائد وهو أعظم قواد البشر في كل تاريخهم في السلم والحرب يعلم تماما أن قريشا نكثرة تعرض المسلمين لقوافلها التجارية في السرايا والغزوات السابقة ، لابُدَّ وَأن تكون على أهبة الاستعداد لحماية هذه القافلة الضخمة الشاملة لكل أمواله ، والتي تعرض لها الرسول القائد لإرهاب قريش عند ذهابها إلى الشام ، فأفلت بها أبو سفيان بعد أن علم بخروج الرسول ﷺ بواسطة عيون قريش الكثيرة ، وكان عدد جيش المسلمين ثلثمائة وخمسة عشر رجلا ، وكان حامل لواء الرسول القائد ﷺ ، أول سفير أرسل الله المؤمن المهاجر القرشي مصعب بن عمير، ولون اللواء أبيض .

وبين يدي الرسول حُمِلَتْ رايتان سوداوان ، يحمل واحدة علي بن أبي طالب ، ويحمل الأخرى سعد بن معاذ زعيم الأوس وممثل الأنصار ، إشارة إلى وحدة المسلمين ، مهاجرين وأنصارا في معركة المصير الخالدة ، وكان الجيش يملك فقط سبعين بعيرًا ، كل ثلاثة يتناوبون ركوب بعير ، وفيه فرسان فقط ، واحدة للزبير بن العوام ، والأخرى للمقداد بن الأسود .

مواقف قيادية رائعة للرسول في هذه الغزوة :

أولا : القائد العظيم حقا هو الذي لا يتميز عن جنوده في الشدائد ، يظهر هذا واضحا حينما عرض عليٌّ بن أبي طالب ، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي أن يمشيا ويركب الرسول القائد في نوبتيهما على البعير ، فقال في حزم (كلا ، ما أنتما بأقوى مني ، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما).

ثانيا : عرض الرسول ﷺ الموقف العسكري أمام جيشه ، وشاور جنوده حتى يكون تقدمهم للقتال عن اقتناع كامل بالمهمة المقدسة التي يطلب منهم تنفيذها .

ولا شك أن الاقتناع الكامل بأسباب القتال ، وبيان المهمة المطلوبة بوضوح نصف النصر لأي جيش محارب.

ثالثا : قبل الرسول رأى الحباب بن المنذر الخزرجي ، في التقدم إلى أدنى ماء من قريش ، وبناء حوض عليه ، وردم بقية الآبار حتى يشرب جيش المسلمين ، ولا يشرب جيش المشركين ، وهذا القبول يدل علي تواضع الرسول ﷺ وعظمة روح الشورى التي جاء بها ۤالإسلام .

قال تعالي : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١٥٩ : آل عمران) .

جيش قريش :

أقبل جيش قريش لحماية قافلة أبي سفيان بن حرب ، بعد أن استغاث أبو سفيان بقوات قريش العسكرية .

وكانت القيادة معقودة لأبي جهل بن هشام ، وتعداد الجيش تسعمائة وخمسون رجلا ، معهم مائة فرس ، وسبعمائة بعير ، ومع الجيش سارت الجواري المطربات يقرعن بالدفوف ، ويغنين الأشعار البذيئة في هجاء المسلمين .

فرار أبي سفيان بن حرب بالقافلة :

واستطاع أبو سفيان ثعلب قريش الماكر الفرار بالقافلة من جيش الرسول ، وذلك بسلوكه طريقا غير معتاد أن تسلكه القوافل التجارية ، وأرسل أبو سفيان إلى جيش قريش بنجاته بالقافلة ، طالبا رجوع الجيش إلى مكة، ولكن أبا جهل رفض الرجوع قائلا :

(والله لا نرجع حتى نرد بدرًا فنقيم عليها ثلاثا ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ونسقي الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، وبمسيرنا ، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها فامضوا).

فسار بجيش قريش إلى بدر ، ضاربا عرض الحائط بنصائح من أشار عليه بالعودة إلى مكة.

الحرب ضرورة فرضت علي المسلمين فرضا :

أصبحت الحرب ضرورة للمسلمين لا مناص منها ، وقد فرضت عليهم فرضا ؛ لأنَّ النكوص عنها سيحطم الآثار المعنوية الخطيرة التي أحدثتها سرايا وغزوات المسلمين السابقة ، كما سيُظهِر المسلمين أمام القبائل العربية بموقف الضعف ، وهذا ولا شك سيدفعهم لمهاجمة المسلمين في المدينة وفي كل مكان ، كما أن النكوص عن الحرب سيدفع قريشا ، ولا شك للاستهانة بالمسلمين والإسلام ، والجراءة عليهم ، وتشديد الحملة على من يريد الإسلام لفتنته في دينه .

كما أن النكوص عن الحرب ومواجهة قريش في هذه المعركةِ الحاسمة سيخفض من روح المسلمين المعنوية ،وهذا من أكبر الأخطار علي انتشار الإسلام ، بل على وجوده ذاته ، وخصوصا معاهدة حسن الجوار وحرية العقيدة التي عقدها مع اليهود الرسول ﷺ ، إذا أحسوا بضعف المسلمين والتعاون مع قريش وغيرها ومع المنافقين للقضاء على الإسلام والمسلمين كما أن النكوص عن مواجهة جيش المشركين المتحدي في صلف للمسلمين عصيان لأمر الله – تعالى – بقتال المشركين المعتدين.

كما أن ردَّ العدوان ، وكسر غرور الظالمين فرصة ذهبية لحصول المجاهدين المسلمين علي النصر الذي وعدهم الله به ، أو الاستشهاد في سبيل

الله لدخول الجنة التي عرضها السموات والأرض ، والحصول علي رضوان الله ، كل هذا لم يغب عن ذهن الرسول القائد ؛ فقرر مواجهة قريش ، واتخذ الموقع الاستراتيجي الأفضل بمشورة أصحابه.

الرسول القائد وخطوات النصر العظيم :

أولا : اتخذ الرسول القائد – صلوات الله وسلامه عليه – – غرفة قيادة فوق مرتفع من الأرض ، بمشورة الصحابي العظيم سعد بن معاذ زعيم الأوس – رضي الله عنه– وكان الهدف من ذلك توجيه الجنود علي حسب تطورات المعركة ، وهذه خطوة قيادية سابقة لأوانها بمئات السنين.

ثانيا : بيَّن للمسلمين الهدف الذي جاءت من أجله قريش ، وهو الشرك بالله سبحانه وتعالى ، وتكذيب رسوله ، وإرادة إطفاء نور الله ، للبشرية وهو الإسلام ، وكان قصد الرسول القائد من ذلك إثارة حماسة المسلمين للقتال .

ثالثا : توجه الرَّسُولُ ﷺ إلى الله ، واهب النصر بالدعاء ، موجهًا للمسلمين كي يستمدوا القوة من الله – سبحانه وتعالى– ؛ لأنَّ الدعاء سلاح المؤمن فقال في دعائه : (اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم أحنهم – أي أهلكهم – الغداة) ، ابن هشام – جزء ٢ ص ٦٢١ ط الحلبي .

رابعا : قام بتنظيم صفوف قواته في حزم ، وحينما رأي سواد بن غزية ، وهو متقدم علي الصف ، طعن بطنه بقدح في يده قائلا : استقم يا سواد فقال سواد : يا رسول الله أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني– أي دعني أفعل معك ما فعلت معي.

فسارع الرسول القائد ﷺ بالكشف عن بطنه الشريف قائلا : والبسمة تعلو وجهه المضيء كالقمر : ها هو بطني فاستقد يا سواد ؛ فسارع سواد باعتناقه ، وتقبيل بطنه الشريف ، فقال: ما حملك علي هذا يا سواد ؟ ..

فقال : حملني ما ترى يا رسول الله ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك فلعلي لا أقابلك إلا يوم القيامة بأبي أنت وأمي يا رسول الله صلوات الله وسلامه عليك – فدعا له الرسول القائد بالخير – ابن هشام جزء ٢ ص ٦٢٦ ط – الحلبي.

وهذا يدل علي تطبيق الرسول القائد للحزم والعدل المطلق ، والحب الكامل الذي يربط بين القائد الأعظم وجنوده ، والثقة الكاملة في قيادته.

خامسا : القضاء علي الخوف في قلوب المسلمين ببيان الجائزة العظمي التي أعدها الله – سبحانه وتعالى – للمقاتلين في سبيله ، حيث قال الرسول القائد لجنوده في ميدان القتال (والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة) – ابن هشام ج ٢ ص ٦٢٧ ط الحلبي.

سادسا : ثقة الرسول القائد ﷺ الكاملة في النصر ، حيث نام نوما يسيرا ، ثم انتبه ، وهو في غرفة القيادة المصنوعة من العريش ، فقال وعلى وجهه البشر والسرور للصديق أبي بكر القائم علي حراسته : (أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله ، هذا جبريل أخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع– الغبار)، ابن هشام جـ٢ ص ٦٢٧ ط الحلبي.

سابعا : أمر الرسول القائد جنوده بعدم التحرك حتي يقترب منهم العدو عند الهجوم ؛ لأنَّ المسلمين لا يملكون أسلحة الهجوم المدرعة ، وهي

الخيول ، وأمرهم بأن ينضحوا العدو بالنبل – يرموه – وهذا تخطيط عسكري بالغ غاية الروعة والمهارة .

ثامنا: قام الرسول القائد – صلوات الله وسلامه عليه – بإطلاق قنابل مسيلة للدموع ، حيث أخذ كفا من الحصباء ، فاستقبل بها قريشا ، ثم قال : شاهت الوجوه ، ثم قذفهم بها ، وقال لأصحابه (شدوا) –ابن هشام جـ ٢ ص ٦٢٨ ط ١ الحلبي.

النصر المبين :

تحقق النصر المبين في هذه الموقعة الفاصلة التي هي مفترق طريق في تاريخ الإسلام والمسلمين ، وتاريخ العالم كله ، حيث قتل من المشركين سبعون وأسر سبعون ، وتحقق النصر للمسلمين ، وقتل صناديد الكفر وزعماء الشرك ، وعلى رأسهم أبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة.

معجزات الرسول في هذه المعركة وكمال أخلاقه :

المعجزة الأولى :

حدد الرسول – صلي الله عليه وسلم – أماكن في ميدان المعركة ، وبين مصرع زعماء قريش في كل مكان منها ، وقد حدث ما أخبر به الرسول القائد تماما ، فقتل كل زعيم من زعماء قريش في المكان الذي حدد له الرسول القائد ، وهذا العمل لا يستطيعه أي قائد في تاريخ العالم ؛ لأنّه إخبار بالغيب ، ولا يعلم الغيب إلا الله ، وهذا يدل أكمل دلالة علي صدق رسوله محمد – صلوات الله وسلامه عليه –.

المعجزة الثانية :

رميه بحفنة من التراب في وجوه جنود قريش ، ودخول ذرات الغبار في عيونهم جميعا ، وهذه معجزة ظاهرة .

المعجزة الثالثة :

إخبار الرسول القائد بوعد الله له بالحصول على الغنيمة أو النصر على قريش في هذه المعركة .

وقد تحقق النصر الكامل مع قلة المسلمين ؛ فدل على صدق الرسول القائد، والنصر غيب لا يعلمه إلا الله ، فكان النصر معجزة دلت علي صدق نبوة النبي – صلوات الله وسلامه عليه –.

المعجزة الرابعة :

قتال الملائكة مع المسلمين في هذه المعركة ، وهذا لم يحدث إطلاقا في تاريخ البشرية ، وقد حدَّث الصحابي أبو داود المازني ، وقد شهد معركة بدر فقال : إنه اتبع رجلا من المشركين ليقتله فوقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفه (قتلته الملائكة) ، ابن هشام الجزء الثاني ص ٦٣٣ ط الحلبي.

وقد رأى المسلمون الملائكة علي خيولهم ، وقد لبسوا عمائم بيضاء وقد أرخوها على ظهورهم ، وهم في صورة بشرية (الملائكة تستطيع التشكل في الصورة البشرية).

وكان جبريل – عليه السلام – يرتدي عمامة صفراء ، وقتال الملائكة مع المسلمين معجزة كبرى للرسول الأعظم – صلوات الله وسلامه – عليه تدل على صدقه في رسالته.

المعجزة الخامسة :

تحويل عود من الحطب إلي سيف طويل القامة ، لامع الحـد ، شـديد الصلابة ، وقد أعطاه الرسول لعكاشة بن محصن ، فقاتل به في المعركـة ، وعكاشة أحد الذين سيدخلون الجنة بغير حساب كما أخبر بذلك الرسول القائد وهذه المعجزة تدل على صدق الرسول في رسالته ﷺ .

تلك المعجزات الرسول القائد في تلك المعركة الخالدة ، وكل معجـزة منها تنطق بألف لسان بأنه رسول الله إلى العالمين بالرحمة وخير دين.

رحمته – صلوات الله وسلامه عليه – بأعدائه :

والرسول القائد – صلوات الله وسلامه عليه – أظهر في هذه الغزوة رحمـة بالغة بأعدائه ، فقد أوصى أصحابه بالأسرى قائلا:(استوصوا بالأسرى خيرا)

وهم الذين طالما عذبوه وأصحابه ، ووجهوا إليه وإلى المسلمين صـنوف الأذى والعنت .

هذه المعاملة البالغة السمو خير دليل على أنه رسول من عند الله – سبحانه وتعالى– حقا وصدقا .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾(١٠٧: الأنبياء)

وهل هناك مقارنة بين هذه الرحمة البالغة وبين تعاليم العهد القـديم التـي يؤمن بها اليهود والنصارى جميعا ؛ لأنها تعاليم كتابهم المقدس ، هذه التعاليم التي تقول في الإصحاح العشرين من سفر التثنية عدد ١٠ وما بعده :

حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح ؛ فإن أجابتك إلى الصلح ، وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، ويستعبد لك – يصير عبيدا لك – وإن لم تسألك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلي يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم ، وكل ما في المدينة ، فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك ، وهكذا تعمل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، (يقصد الشعوب الكنعانية).

وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا ، فلا تستبق منها نسمة ما ، بل تحرمها تحريما (الحثيين والأموريين والكنعانيين والفيرزيين والحوبيين واليبوسيين) ، كما أمرك الرب إلهك .

أين رحمة الرسول والإسلام من قسوة تعاليم العهد القديم ، واليهود ومن يدور في فلكهم من النصارى ؟! .. لقد قبل الرسول القائد الفداء من الأسرى بمشورة الصديق ، وأطلق سراحهم ، ماعدا النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ، حيث أمر بقتلهما لشدة حقدهما علي الرسول ﷺ ، والإسلام والمسلمين ، وما سبق منهما من الأذى لرسول الله ﷺ ولإتباعه.

ومن لم يستطيع دفع الفداء من الأسرى أطلق الرسول العظيم سراحه بعد أن اشترط عليه تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة .

وهذه لفتة مذهلة تبين ارتباط العلم والإيمان بأمة الإسلام ، ومدى تقدير الإسلام للعلم .

ومن كان من الأسرى لا يملك مالا ، ولا يعرف القراءة والكتابة مَنَّ عليه الرسول الأعظم بالحرية من غير مقابل مثل أبي عزة الشاعر .

لقد كانت هذه الغزوة العظيمة في صباح الجمعة الموافق السابع عشر من رمضان المبارك ، وتحدد بها مستقبل الإسلام إلى قيام الساعة .

معاتبة الله – سبحانه وتعالى – للمسلمين لأخذ الفداء من الأسرى :

حينما أخذ الرسول ﷺ الفداء من الأسرى بمشورة أبي بكر – رضي الله عنه – وأطلق سراحهم ، نزل قول الله – سبحانه وتعالى – معاتبا رسوله الكريم :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(٦٩/٦٧: الأنفال)

فقد عاتب الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ علي رحمته بالأسارى ؛ لأنَّ الرحمة العامة هي في قتلهم ، إذا استمروا على تمسكهم بكفرهم ؛ لأنَّ هؤلاء هم سادة الشرك ، وزعماء الوثنية ، وطالما وقفوا في طريق انتشار الإسلام بكل الوسائل المتاحة لهم ، حتى وصل بهم الأمر إلى غايته ، فحملوا السلاح لقتل المسلمين ، وإبادة الإسلام .

فكانت الرحمة الشاملة لغيرهم تحتم قتلهم ، إذا استمروا علي كفرهم لإلقاء الرعب في قلوب قريش وغيرها من قبائل العرب ، فلا تحمل السيف علي المسلمين ، ولا تسفك الدماء في معارك أخرى .

ولا يقف عائق في طريق انتشار نور الله الخالد الإسلام ، ولا يفتن مسلم في دينه بعد تلك المعركة ، فقد عاتب الله – سبحانه وتعالى – رسوله علي رحمته الخاصة بهؤلاء الأسرى ، في حين كان واجب الرسول أن يرحم

قريشا والعرب جميعا بقتل من تمسك بالكفر والشرك من هؤلاء الأسـرى ، حتى يدخل العرب في دين الله أفواجا ، ولا يفكروا بعد ذلك فـي محاربـة الإسلام والرسول والمسلمين .

لقد مكث الرسول الأعظم ﷺ يدعوهم ثلاثـة عـشر عامـا بالحكمـة والموعظة الحسنة إلى الدخول في الإسلام ، ورأوا الدليل القاطع علي صدقه في هذه الغزوة ، فما كان لهم بعد ذلك من عذر في تمسكهم بكفرهم ، وهـذا التمسك بالكفر يدل على نياتهم المبيتة للاستمرار في محاربة الإسلام ، ووقف انتشار نور الله بكل السبل .

وهذا العتاب أيضا دليل قطاع حاسم علي صحة ما ذهبنا إليه مـن أن المسلمين لم يحاربوا من أجل الغنائم ، ولم يخرجوا من أجلها قبل بدر .

وحينما خرجوا في بدر للحصول علي الغنائم أو النصر ، اختار لهم الله العليم الغني الحكيم النصر ، وبين لهم في حسم أن يتطلعـوا دائمـا لمثوبـة الآخرة ، لا لمغانم الدنيا الزائلة وعرضها الفاني .

وهذا أعظم رد على أعـداء الإسـلام ، الـذين قـالوا إن الأنـصار والمهاجرين تجمعوا حول محمد ، للحصول علي الغنائم .

غزو رسول الله ليهود بني قينقاع :

حينما قدم الرسول الأعظم والقائد الأكرم محمد ﷺ إلى عاصـمة أمـة الإسلام الفتية المدينة المنورة ، آخى بين المهاجرين والأنصار، ثم أقدم على عمل عظيم لم يعرف له العالم مثيلا من قبل ، وهو عقد معاهدة سلام وحسن جوار وحرية العقيدة مع قبائل اليهود في المدينة ، وهم بنو النضير ، وبنـو قريظة ، وبنو قينقاع ، وقد نصت تلك المعاهدة بالإضافة إلى البنود الـسابقة

علي حرمة الدماء والأموال ، وتحريم الجريمة ، والتعاون لرد العدوان عن المدينة ، إذا هاجمها عدو ، كما نصت علي تحكيم رسول الله ﷺ في الخلاف الذي يحدث بين أهل المدينة ، وأنه لا يخرج أحد من اليهود من المدينة إلا بإذن الرسول الأعظم ﷺ كما نصت على عدم إجارة قريش أو إجارة من يناصرها من قِبل اليهود .

معاهدة الرسول مع اليهود أول وثيقة في حقوق الإنسان في تاريخ البشرية :

ولا شك أن هذه المعاهدة كانت أول وثيقة في حقوق الإنسان في تاريخ البشرية، وقد وضعها الرسول القائد في العام الأول من تاريخ الهجرة ، وفي الثلث الأول من القرن السابع الميلادي ، فكانت فتحا في علاقات البشر لم يدرِ العالم مغزاها إلا في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي حينما صاغ العالم وثيقة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة .

المعاهدة اعتراف من اليهود بزعامة الرسول علي المدينة ، وسيادة المسلمين :

وتدل هذه المعاهدة الرائعة على العظمة السياسية للرسول الزعيم – صلوات الله وسلامه عليه – :

فقد تضمنت بنودها المصاغة في غاية الحكمة والحنكة السياسية اعتراف اليهود بزعامة الرسول– صلوات الله وسلامه عليه– على المدينة ، وذلك بموجب النص الذي يحكم الرسول الزعيم في الخلاف الذي ينشأ بين أهل المدينة .

وهذا النص الهام جدا لا يجيز لغير المسلمين في المجتمعات الإسلامية اتخاذ محاكم خاصة بهم ، بل يتحاكمون أمام المحاكم الإسلامية ؛ لأن القضاء هو الدعامة الأساسية في سيادة الدولة .

مع أن القضاة المسلمين يحكمون بموجب شرائع غير المسلمين في الأحوال الخاصة بهم تحقيقا لحرية العقيدة في ظلال الإسلام .

كما تضمنت تلك المعاهدة الرائعة نصا صيغ في غاية الحكمة والحنكة السياسية أيضا ، ودلل به الرسول الزعيم على بعد نظره ، وسعة أفقه ، وتوقعه الخيانة من اليهود ، كما تضمن سيادة المسلمين على المدينة ، وهذا النص : (عدم خروج أحد من اليهود من المدينة بغير إذن الرسول الزعيم) .

فقد وضع هذا النص تحركات اليهود المشبوهة تحت مراقبة الرسول الزعيم والسلطة الإسلامية ، كما تضمنت المعاهدة نصا رائعا آخر حال بين اليهود وبين التقارب مع قريش على حساب المسلمين وفي ضوء حسن العلاقات معهم ، وهذا البند (عدم إجارة قريش ومن ينصرها من قبل اليهود)

وهذا النص يدل على عظمة الرسول السياسية ، وبعد نظره ، وحنكته ، وتمام معرفته بالطبيعة اليهودية .

كما تضمنت المعاهدة العظيمة نصا رائعا يحمي حرية العقيدة لغير المسلمين في المدينة وهم اليهود ، ويحمي معابدهم ، وهذا تطور عظيم رائع في تاريخ البشرية لم يعرف قبل الإسلام ، ولا يعرف مع غير الإسلام ، ولا يمارس تحت غير حكم الإسلام ، حتي في عصرنا هذا عصر الحضارة الأوربية المسيحية التي وصلت القمر ، وحلقت في الفضاء ، وغاصت في قاع المحيطات والبحار، ووصلت إلى منجزات علمية باهرة ، فالتعصب الديني والجنسي واللوني مازال يحكم تلك المجتمعات غير المسلمة مع تفوقها

المادي الرهيب ، ولكنها مجتمعات تسودها حضارة مادية خالية من إشعاعات الروح ، ذات مخالب حادة ، وأنياب مفترسة لا تعرف الرحمة ، ولا تجمع بين منجزات العلم المادي الواقعي وإشراقات الروح الرحيمة التي جاء بها الإسلام، كما هو شأن الحضارة الإسلامية التي سادت العالم مئات السنين قبل الحضارة الأوربية الحاضرة التي نمت على منجزات الحضارة الإسلامية العلمية.

يهود بني قينقاع ينقضون المعاهدة مع المسلمين :

وحينما علم يهود المدينة بانتصار المسلمين الساحق في بدر سارع بنو قينقاع بالطعن في المسلمين ، والتحريض عليهم ، وأظهروا حقدهم عليهم بالبكاء علي قتلى قريش ، كما فعل كعب بن الأشراف أحد زعماء اليهود – حينما علم بقتلى قريش في بدر – قال:

(هؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمد قد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها).

ثم أقدم يهودي من بني قينقاع علي هتك ستر امرأة مسلمة ، عند صائغ يهودي ، فقد طلب منها اليهودي كشف وجهها فأبت ، فربط أحدهم ذيل ثوبها في ظهرها ، فلما قامت انكشف سوأتها ، فضحك اليهود الخبثاء ، فصرخت المرأة العفيفة ، فوثب مسلم على الصائغ اليهودي فقتله ، وقتل اليهود المسلم. فاستصرخ أهل المسلم المسلمين علي اليهود ، وتوترت العلاقات بين الفريقين وبلغت غاية السوء ، وهنا حذر الرسول – صلوات الله وسلامه عليه يهود بني قينقاع من الاستمرار في أذى المسلمين ، وطلب منهم المحافظة على نصوص معاهدة الصداقة وحسن الجوار ، وإلا نزل بهم ما نزل بقريش من قتل وهزيمة واندحار.

فردوا ردا امتلأ بالاستخفاف والعجرفة والتحدي قائلين :

(لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إنا والله لو حاربناك لتعلمن إنًا نحن الناس).

هنا أصبح لا مفر أمام الرسول القائد من حرب بني قينقاع ، وإلا ضاعت هيبة المسلمين أمام اليهود وقريش والعرب جميعا.

ولَضاعت المكانة السامية التي وصل إليها المسلمون بانتصارهم في غزوة بدر علي أبطال قريش وسادات العرب .

وخصوصا ، وقد نقض اليهود شروط معاهدة الصداقة وحسن الجوار، وهددوا بإثارة ثورة داخلية تهدد دولة الإسلام المشرقة التي أقامها الرسول ﷺ في المدينة ، فلو ترك الرسول الزعيم بني قينقاع من غير عمل حازم حاسم ، لأصبحت حياة المسلمين في المدينة ، ودولتهم الوليدة ، وعقيدتهم المنيرة مهددة بالزوال من اليهود ، ومن قريش ومن العرب جميعا.

وهنا أصدر الرسول القائد أوامره لجيشه الشجاع بالتحرك نحو حصون بني قينقاع لسحق الباطل ، وإعلاء كلمة الحق والعدل والسلام.

وحينما رأى اليهود قوات الإسلام الزاحفة برايات البطولة والنصر والنور ، تحصنوا كالجرذان الحقيرة في داخل حصونهم ، ولم يقاوموا ساعة واحدة أبطال الإسلام ، ليظهروا بطولتهم التي كانوا يتشدقون بها من قبل وهكذا انطبق عليهم قول الشاعر العربي :

وإذا ما خلا الجبان بأرض   طلب الطعن وحده والنزالا

وحاصرهم الرسول خمسة عشر يوما ،حتي نزلوا صاغرين علي حكمه فيهم.

وقد أشار صحابة رسول الله جميعا بقتلهم .

شفاعة زعيم المنافقين فيهم :

وقد شفع فيهم زعيم المنافقين بالمدينة ، وحليفهم السابق عبد الله بن أبي بن سلول ، فقال للرسول المنتصر :

(يا محمد أحسن إلى موالي) وكانوا حلفاء قومه الخزرج قبل الإسلام ، وألح على الرسول ﷺ حتي قبل شفاعته فيهم ، وحفظ دماءهم النجسة وأجلاهم عن المدينة ، وبهذا أمن المسلمون شرهم ، واستراحوا من كيدهم ، ورجعت مهابتهم كاملة إليهم .

هل أرغمهم الرسول المنتصر علي الإسلام ؟

هنا نقول لأعداء الإسلام لو كان الإسلام يرغم أحدا على الدخول فيه بالسيف ، لكان أولى الناس بهذا الإرغام هم هؤلاء اليهود ، الذين نقضوا العهود ، وهددو بقلب نظام الحكم الإسلامي في المدينة ، وأثاروا فتنة طائفية داخلية ، ما كان يعرف أحد إلا الله – سبحانه وتعالى – مداها .

فهل لو فعل الرسول معهم ما فعله النصارى في أسبانيا حينما انتصروا علي المسلمين ، فأقاموا محاكم التفتيش على العقيدة لإرغام المسلمين واليهود علي التنصر ، هل لو فعل الرسول ذلك يكون مخطئا ؟! ... كلا وألف كلا، ولكنه الإسلام الذي جاء بحرية العقيدة. قال تعالى :

{ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ }(٢٥٦: البقرة)

منع الرسول من إرغامهم علي الإسلام ، وهو دين الحق الذي لا يقبل الله سواه.

ومع كثرة جرائمهم اكتفي الرسول الرحيم بإجلائهم عن المدينة ! فهل عرف العالم في كل تاريخه فاتحا أرحم من الرسول القائد ومن المسلمين؟ ..

وهل عرف العالم في كل تاريخه دينا غير الإسلام ، لا يرغم أحدا على اعتناقه ، ويزيد في عظمته ، فيحفظ حرية العقيدة لغير المسلمين ؟ ..

كلا ، لم يعرف العالم في كل تاريخه مثل رحمة مبادئ الإسلام ، ورحمة رسول الإسلام ، وعظمة كتاب الله الخالد القرآن دستور الإسلام المنير.

أما الحرب المشروعة فلا يحرمها دين من الأديان ، وها هو المسيح عليه السلام يقول :

(لا تظنُوا أنِّي جئت لألقي سلاما على الأرض ، ما جئت لألقي سلاما بل سيفا ، فإني جئت لأفرق بين الابن وأبيه ، وبين الكنة وحماتها ، إلى أن قال في الحث على القتال ، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها).

- إنجيل متى - الإصحاح العاشر - عدد ٢٥ وما بعده.

٧- غزوة السويق :

خرج أبو سفيان بن حرب في مائتين من قريش فأغار على ناحية من المدينة تسمى العريض ، فحرقوا بعض نخلها ، وقتلوا رجلين من الأنصار ثم ولوا هاربين ، فخرج الرسول ﷺ مع المسلمين في أثره حتى وصل إلى قرقرة الكدر ثم انصرف راجعا.

وكان ذلك في ذي الحجة ، وسميت غزوة السويق لكثرة السويق الذي ألقاه المشركون على الطريق فعثر به المسلمون .

ومع كثرة جرائمهم اكتفي الرسول الرحيم بإجلائهم عن المدينة ! فهل عرف العالم في كل تاريخه فاتحا أرحم من الرسول القائد ومن المسلمين؟ ..

وهل عرف العالم في كل تاريخه دينا غير الإسلام ، لا يرغم أحدا على اعتناقه ، ويزيد في عظمته ، فيحفظ حرية العقيدة لغير المسلمين ؟ ..

كلا ، لم يعرف العالم في كل تاريخه مثل رحمة مبادئ الإسلام ، ورحمة رسول الإسلام ، وعظمة كتاب الله الخالد القرآن دستور الإسلام المنير.

أما الحرب المشروعة فلا يحرمها دين من الأديان ، وها هو المسيح عليه السلام يقول :

(لا تظنُّوا أنِّي جئت لألقي سلاما على الأرض ، ما جئت لألقي سلاما بل سيفا ، فإني جئت لأفرق بين الابن وأبيه ، وبين الكنة وحماتها ، إلى أن قال في الحث على القتال ، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها).

- إنجيل متى – الإصحاح العاشر – عدد ٢٥ وما بعده.

٧- غزوة السويق :

خرج أبو سفيان بن حرب في مائتين من قريش فأغار على ناحية من المدينة تسمى العريض ، فحرقوا بعض نخلها ، وقتلوا رجلين من الأنصار ثم ولوا هاربين ، فخرج الرسول ﷺ مع المسلمين في أثره حتى وصل إلى قرقرة الكدر ثم انصرف راجعا.

وكان ذلك في ذي الحجة ، وسميت غزوة السويق لكثرة السويق الذي ألقاه المشركون على الطريق فعثر به المسلمون .

وكانت هذه الغزوة لمطاردة أبي سفيان الذي قصد بإغارته على المسلمين الوفاء بنذره بعد هزيمة بدر ، حيث نذر :

(أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدًا ﷺ).

٨- غزوة بني سليم :

كانت في شوال عقب بدر فأقام الرسول ﷺ مع جيشه ثلاث ليال على ماء الكدر لم يلق كيدا ولم يجرؤ العدو علي منازلته .

٩- غزوة غطفان :

وغزا الرسول القائد في صفر غطفان في نجد ، حيث أقام بنجد صفرا كله أو قريبا من ذلك ، ثم رجع إلي المدينة ولم يجرؤ العدو علي مواجهته .

١٠- غزوة قرية الفرع :

ثم غزا الرسول القائد قرية يقال لها الفرع من بحران فأقام بها ربيع الآخر وجمادي الأولى ، ثم عاد مع جيشه إلى المدينة ، ولم يجرؤ الأعداء علي الدخول معه في معركة – ابن هشام جـ ٣ ص ٤٦.

وهذه الغزوات الأربع ٧، ٨، ٩ ، ١٠ قصد بها الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – المحافظة علي هيبة المسلمين ، وقد وضحت تلك الهيبة تماما في عدم اجتراء أي قبيلة من تلك القبائل أو الجيوش علي مواجهة الرسول وجيشه الشجاع في معركة حاسمة.

وكان يراد بتلك الغزوات أيضا إفهام القبائل العربية التي يخشى منها التعاون مع قريش والغدر بالمسلمين أن قوات الإسلام مستيقظة متأهبة لسحق من تسول له نفسه بالعدوان.

١١- سرية زيد بن حارثة :

خرج صفوان بن أمية بن خلف في قافلة كبيرة لقريش ، تحمل بضائع بمائة ألف درهم. وقد أراد خداع المسلمين، فسلك طريق العراق إلى الشام . وتجنب طريق الساحل القريب من المدينة الذي يقيم فيه حلفاء الرسول ﷺ وتجوبه سرايا الإسلام بصفة دائمة.

كما أن – هذا الطريق طريق لا تطؤه أقدام جنود الإسلام ، وكان بمكة رجل من أهل المدينة هو نعيم بن مسعود الأشجعي ، فعلم بخطة قريش وأخبر بها الرسول القائد – صلوات الله وسلامه عليه – كما أخبره بما تعده قريش من قوة لتأخذ بثأرها من المسلمين وتمحو هزيمتها في بدر.

وهنا أسرع الرسول القائد ﷺ بإرسال سرية من مائة من جنود المسلمين الشجعان بقيادة البطل زيد بن حارثة مولاه ، الذي التقى بالقافلة عند القردة (من مياه نجد) فهرب حراس القافلة ، واستولى عليها المسلمون ، وأسروا دليل القافلة فرات بن حيان من بني بكر بن وائل .

فخمس الرسول ﷺ الغنيمة ، وقسم الباقي على رجاله ، وأسلم فرات فأطلق سراحه .

الاستيلاء علي القوافل بعد بدر عمل مشروع:

بعد معركة بدر أصبح استيلاء المسلمين علي أموال قريش عملا حربيا مشروعا ؛ لأنه باشتباك قريش مع المسلمين في بدر ، صارت هناك حالة حرب قائمة بين المسلمين وقريش ، وفي حالة الحرب هذه من حق المسلمين الاستيلاء علي أموال قريش ؛ لأنهم بذلك يحرمون العدو من استخدام أرباح هذه التجارة ، وهذه الأموال في التسلح ، وإعداد القوة لمحاربة المسلمين .

ومن هنا قلت إن كل السرايا والغزوات قبل بدر لم يكن يراد بها الاستيلاء علي أموال قريش ، وإن المسلمين لا يتشبهون بعصابات قطاع الطرق – حتي وإن كان الحق معهم لاسترداد أموالهم التي نهبتها قريش من المهاجرين في مكة – كما يقول أعداء الإسلام ، وكتاب المسلمين الذين وقعوا في هذا الخطأ بحسن نية ، لعدم وجود حالة حرب بين المسلمين وقريش .

أما بعد معركة بدر، وفي وجود حالة الحرب ، واستعداد قريش لجولات أخري مع المسلمين فإن الاستيلاء علي أموالها وقوافلها يعد عملا مشروعا ، لأنه إجهاض لقوة العدو للقضاء على خطره ، وحماية المسلمين من شره .

١٢- غزوة أحد ودروس الهزيمة والنصر:

هذه الغزوة أيضا فرضت علي المسلمين مثل بدر؛ فقد جاءت قريش في ثلاثة آلاف مقاتل ، وذلك في شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة ، واستشار الرسول القائد ﷺ أصحابه ، هل يبقي جيش المسلمين بالمدينة ، يدافع الرجال من أسفل بالسيوف والرماح والسهام ، ويدافع النساء والأطفال من فوق أسطح المنازل بالأحجار!.... أم يخرج لمقابلة أعدائه خارج المدينة !.

ورأي أهل الحكمة من عقلاء القوم البقاء في المدينة والدفاع عنها من الداخل ورأت الأكثرية المتحمسة بروح الشباب الوثاب الخروج لمقابلة قريش خارج المدينة ، حتي لا تزعم قريش أنها أخافت المسلمين فامتنعوا عن الخروج لمواجهتها.

وتغلب رأي الأغلبية الذين أخذهم الحماس لمواجهة قريش (وليس الصواب دائما في رأي الأغلبية بل رأي القلة العاقلة الحكيمة هو الأفضل هنا). فخرج الرسول القائد بجيشه الشجاع إلى أحد ، ورجع الخائن زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول بثلثمائة من أتباعه ، فبقي جيش المسلمين

في سبعمائة مقاتل لا غير يواجه قريشا برجالها وحلقائها ونسائها وعصبيتها وحقدها وإصرارها علي الثأر لقتلاها ، وهزيمتها المنكرة في بدر.

الرسول القائد يصف قواته للقتال :

وصف الرسول القائد قواته للقتال ، فجعل ظهور المسلمين لجبل أحد بحيث يحتمون به من الخلف ، وجعل وجوههم إلي المدينة بحيث يستقبلون الوادي ويشرفون عليه من أعلاه .

وأوقف خمسين راميا بقيادة عبد الله بن جبير ، وأمرهم الا يبرحوا جبل الرماة هذا سواء كان النصر للمسلمين أم عليهم .

ثم علمهم كيف يردون الخيل بالسهام كلما أقبلت عليهم حماية لظهور المسلمين ، وأكد الوصية عليهم بعدم مغادرة هذا المكان المرتفع الاستراتيجي المشرف علي ميدان المعركة حتي وإن رأوا أصحابهم تتخطفهم الطير ، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٢١: آل عمران)

اشتعال نيران المعركة :

وبدأت المعركة ، وكان النصر في البداية للمسلمين ، وفرَّ المشركون ، واهتبل المسلمون الفرصة فانكبوا على جمع الغنائم ، وأخذ نساء المشركين سبايا.

وخالف الرماة أوامر القائد الأعلى ، فاندفعوا لأخذ الغنائم مع الآخرين تاركين موقعهم الاستراتيجي الحيوي في حماية شرذمة قليلة منهم رفضت مخالفة أوامر الرسول القائد الأعلى للمسلمين ، وكان عددهم عشرة فقط . وبهذا أصبحت ظهور المسلمين مكشوفة لأعدائهم .

وانتهز القائد الداهية خالد بن الوليد قائد خيالة المشركين ، وقتها هـذه الفرصة الذهبية ، فكرّ برجاله علي ما ثبت مـن الرمـاة ، فقـتلهم ، ودار بالمسلمين من خلفهم ، وأخذت الدهشة المسلمين ، ولفهم الـذهول ، وشـلت سواعدهم المفاجأة التي فاجأهم بها القائد العبقري خالد بن الوليـد ، وانقلـب النصر الباهر إلي هزيمة منكرة .

واستشهد غدرا فارس الفرسان وبطل أبطال العرب والمسلمين حمـزة ابن عبد المطلب عم الرسول ﷺ رماه وحشي العبد الحبـشي بحربـة وهـو متواري خلف شجرة ، بعد أن رآه يدمر صفوف المشركين بضرباته الساحقة كالصواعق ، الزاحفة كأمواج المحيطات ، وسـقط الكثيـرون مـن أبطـال المسلمين في ميدان المعركة شهداء ، وجرح الرسول القائد ببضعة جراح.

عوامل الهزيمة بعد النصر :

أولا : تكالب الجيش علي الغنائم ، وترك مطاردة العدو نسيانا لتنبيه الله سبحانه وتعالي للمسلمين في غزوة بدر بأن الله تعالي يريد من المسلمين أن يكون هدفهم الأوحد العمل للآخرة بالقضاء الكامل علي المشركين ، وعدم ترك الفرصة لهم للنجاة بكفرهم وشرهم للعمل علي القضاء علي المسلمين . فبعد غزوة بدر ، قال تعالي : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾(٦٧: الأنفال)

فقد عاتب الله – سبحانه وتعالى – الرسول على أخذه الفداء وإطـلاق سراح الأسرى ، وهم علي شركهم ، وحقدهم على الإسلام ورسوله .

فكان واجب المسلمين في هذه المعركـة اسـتثمار النـصر بمطـاردة المشركين والإثخان فيهم بالقتل ، وعدم التكالب على عرض الدنيا الزائل من

الغنائم ، ونسيان تعاليم الله تعالى طريق إلي الهزيمة والخذلان فالنصر من عند الله ، والهزيمة هنا لتنبيه المسلمين بعدم نسيان أوامر الله تعالى مرة أخرى .

ثانيا : مخالفة الرماة لأوامر الرسول القائد الأعلى أدت أيضا إلى الهزيمة ؛ لأنها مخالفة للقيادة العبقرية العلمية بنقاط الضعف والقوة .

ولأنها ثانيا مخالفة لأوامر الرسول الذي أمره هو أمر الله تعالى ، ولا ينصر الله قوما يخالفون أوامر رسوله .

هذه الغزوة نصر ساحق للرسول وللإسلام وهزيمة للمسلمين :

هي هزيمة للمسلمين ؛ لأنها أضاعت نصرا دنت ثماره من أيديهم ، ولما فقدوا فيها من شهداء وهيبة.

وهي انتصار للرسول وللإسلام ؛ لأنها أثبتت قوة الإيمان في بث أقصى طاقات الشجاعة عند الشدائد في قلوب المؤمنين .

وأظهرت بطولة الرسول القائد الخارقة في صموده في وجه جحافل الأعداء المنهمرون عليه كأمواج البحار يريدون قتله .

ولولا ثبات الرسول القائد وصموده في وجه الأعداء لقضي على المسلمين قضاء مبرما ، وهي نصر للرسول القائد لنجاحه في تربية رجال أبطال يبذلون حياتهم في رضا وسرور دفاعا عن دينهم الخالد ، وفداء لحياة قائدهم – صلوات الله وسلامه عليه –.

مواقف رائعة لأبطال المسلمين في هذه المعركة :

أظهرت هذه المعركة بطولات المسلمين التي لم تعرف الدنيا لها مثيلا من قبل ، وأبرزت عظمة المسلم المسلح بأسلحة الإيمان الباهرة ، وأظهرت

أن الإسلام الخالد لا يهزم ، وهناك رجال مـــازجوه بقلـــوبهم ، وأرواحهـــم وأنفسهم وأجسادهم مثل أصحاب محمد ﷺ .

ومن بطولات الإسلام في هذه المعركة الرهيبة :

١- قول خيثمة وكان ابنه قد استشهد مع الرسول القائد في بدر.

لقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة ، يسرح في الجنـــة وأنهارها ، وهو يقول لي : يا أبت سارع إلينا ترافقنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقا ، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقا إلى مرافقته في الجنة ، وقد كبرت سني ، ورق عظمي ، وأحببت لقاء ربي ، فـــادع الله يـــا رسول الله أن يرزقني الشهادة ، ومرافقة ولدي سعد في الجنة).

فدعا له رسول الله ﷺ بذلك ، فقتل شهيدا في هذه المعركة ، فدل ذلـــك علي صدق كلامه ، واستجابة الله – سبحانه وتعـــالي – لـــــدعاء رســـوله الحبيب محمد – صلوات الله وسلامه عليه –.

فدل ذلك علي صدق رسالة مجمد – صلوات الله وسلامه عليـــه – لأن الله تعالي لا يستجيب لأعدائه ، أو الذين يكذبون عليه .

٢- وقال عبد الله بن جحش في ذلك اليوم :

(اللهم إنِّي أقسم عليك أن ألقي العدو فيقتلوني ، ثـــم يبقـــروا بطنـــي ، ويجدعوا أنفي ، وأذني ، ثم تسألني فيم ذلك يا عبد الله ، فأقول فيك يا رب)

وقد استجاب الله لدعائه تماما ، فدل ذلك علي حب الله سبحانه وتعـــالي للمسلمين، والله تعالي لا يحب أعداءه بل يحب أولياءه ، ومعنـــى محبـــة الله تعالى للمسلمين ، أنهم أهل دينه الصحيح الخالد الذي لا يقبل الله سواء ، وهو الإسلام .

وهذا يدل على أن الإسلام هو الدين الحق وما عداه باطل ، وأن الرسول صادق في رسالته ، وأنه حقا رحمة من الله للعالمين.

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج ، وقد أراد أبناؤه الأربعة أن يحولوا بينه وبين الجهاد في هذه الغزوة ؛ لأنهم كانوا يغزون مع الرسول القائد إذا غزا ، فلما أراد التوجه إلى أحد معهم قال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت ونحن نكفيك ، وقد وضع الله عنك الجهاد ، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ وقال يا رسول الله إن بني هؤلاء يمنعوني أن أخرج معك ، وإني والله لأرجو أن استشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة ، فقال له رسول الله ﷺ : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد ، وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عزَّ وجل أن يرزقه الشهادة ، فخرج مع الرسول القائد ، فقتل يوم أحد شهيدا رضي الله عنه زاد المعاد جـ ٣ ص ٥٩٢.

وهذا يدل على بطولة الشهيد عمرو بن الجموح ، وتحقيق الله سبحانه وتعالي لرجائه في الشهادة ، ولا يحقق الله رجاء الكافر الكاذب ، فدل ذلك على صدق الإسلام وصدق رسول الله ﷺ وعلى أن الحق مع المسلمين.

- فداء مصعب بن عمير رضي الله عنه رسول الله ﷺ بحياته ؛ لأنه كان شبيها برسول الله ، فتكاثر عليه المشركون واستشهد -رضي الله عنه- فدل ذلك على عظمة الإيمان في قلوب أصحاب رسول الله ﷺ واستعدادهم جميعا لفدائه بأرواحهم ، وهذا انتصار ساحق للإسلام ولرسول الإسلام .

وحينما أحاط المشركون برسول الله ﷺ قال هل من رجل يبيع لنا نفسه ؟...

فقام زياد بن السكن في نفر خمسة من الأنصار فقاتلوا دون رسول الله فقتلوا جميعا ، وكان آخرهم زيادا ، فقاتل حتي أوهنت قواه الجراح ، ثم جاءت جماعة من المسلمين ، فحالوا بينه ، وبين هجوم المشركين عليه ، فقال الرسول القائد : ادنوه مني .

- فأدنوه منه ، فوسده قدمه فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ . سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٥٩٩ ط الحلبي.

وهذا العمل الرائع من زياد وصحبه - رضي الله عنهم- يدل على انتصار الإسلام ، وانتصار الرسول القائد. فالتضحية بالحياة فداء للرسول القائد انتصار مذهل لتعاليم الإسلام في قلوب المسلمين ودين ينتصر في قلوب أبنائه تحت وهج نيران المعارك لا يمكن إلا أن يحقق النصر علي كل أعدائه في النهاية وهذا ما حدث فعلا للإسلام .

ورمي سعد بن أبي وقاص دون رسول الله ﷺ . وانهال علي الأعداء بسهامه القاتلة السديدة التي لا تخطئ فأوقفت سهامه موجة الهجوم الكاسح من طوفان الأعداء علي الرسول الأعظم - صلوات الله وسلامه عليه-.

قال سعد - رضي الله عنه - : فلقد رأيت رسول الله يناولني النبل وهو يقول : ارم فداك أبي وأمي ، حتى أنه ليناولني السهم ما له من نصل . فيقول : ارم به . (سيرة ابن هشام جـ٣ ص ٦٠٠ ط الحلبي) .

- وقال أنس بن النضر لرجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا بأيديهم. فقال لهم ما يجلسكم هكذا من غير قتال؟!

قالوا : قتل رسول الله ﷺ (وكان الكفار قد أشاعوا قتله) فقال لهم :

فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟! .. ثم دعا فقال : اللهم إني أعتذر إليك عما صنع هؤلاء (يقصد أصحابه) وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء (يقصد الكفار) ثم قاتل حتي قتل. فوجدوا فيه ثمانين جرحا ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم. وكان قد غاب عن بدر فعاهد الله لئن شهد قتالا للمشركين ليرين الله - سبحانه وتعالى -ما يصنع بأعداء دينه.

وقد وفي بعهده مع الله -سبحانه وتعالى- فدل ذلك على كمال إيمانه ، وانتصار الإسلام في قلبه ، ونزل فيه وفي أصحابه قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ (٢٣: الأحزاب)

سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٦٠٠ وسيرة بن كثير جـ ٣ ص ٦١ .

- موقف طلحة بن عبيد الله الرائع الباهر. قال البيهقي بإسناده عن جابر: (انهزم الناس عن رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - يوم أحد. وبقي معه أحد عشر رجلا من الأنصار. وطلحة بن عبيد الله وهو يصعد الجبل. فلحقهم المشركون فقاتل الأنصار دونه حتى قتلوا جميعا ، وقاتل طلحة دون رسول الله ﷺ ، مثل قتال جميع من كان قبله).

قال صاحب إمتاع الأسماع (قاتل طلحة بن عبيد الله عن رسول الله ﷺ قتالا شديدا ، وصار يذب بالسيف من بين يديه ومن ورائه وعن يمينه وعن شماله يدور حوله يترس بنفسه دون رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه.

ورمي مالك بن زهير رسول الله بسهم ، فاتقاه طلحة بيده عن وجهه الشريف ، فأصاب السهم خنصره فشل ، وقال حين رمي بالسهم : حس ، فقال رسول الله لو قال : باسم الله ، لدخل الجنة والناس ينظرون ، من أحب أن ينظر إلي رجل يمشي في الدنيا ، وهو من أهل الجنة فلينظر إلى طلحة . طلحة ممن قضي نحبه - فهو شهيد يمشي بين الناس - رضوان الله عليه-.

وأصيب طلحة في رأسه فهطل الدم منه حتى غشي عليه ، فنضح أبو بكر- رضي الله عنه- الماء في وجهه حتى أفاق فقال : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قال : خيرا ، هو أرسلني إليك ، قال الحمد لله ، كل مصيبة بعده هينة قليلة) - إمتاع الأسماع جـ١ ص ١٤٢ .

فهل يسمع العالم عن مثل هذه البطولة الفذة؟!.. ومثل هذا الحب من جندي بطل لقائد العظيم؟!.. كلا. إنها بطولة الإسلام ، وعظمة الإسلام وتربية محمد رسول الإسلام لخير رجال عرفهم العالم .

إن هذه البطولة الفذة والمحبة الباهرة تساوي انتصارات جيوش بكاملها.

من هنا قلنا : لقد انتصر الإسلام وانتصر رسول الإسلام في تلك المعركة وخسر المسلمون المعركة.

- بطولة شماس بن عثمان المخزومي ، الذي قاتل عن رسول الله ﷺ : يمينا وشمالا ، وترس بنفسه دون رسول الله – جعل من جسده ترسا يصد الضربات عن رسول الله حتى قتل – رحمه الله –وقال فيه رسول الله ﷺ (ما وجدت لشماس شبها إلا الجنة – ما يتحصن به من أدوات الحرب كالدرع والترس). – إمتاع الإسماع جـ١ ص١٤٤.

فهذه البطولة الفذة انتصار للإسلام وللرسول ، للدين وللمعلم والمربي.

- بطولة أبي طلحة الأنصاري الذي ترس بجسمه يحمي رسول الله ﷺ وكان راميا يرمي بالسهام عن رسول الله ﷺ ، ويصيب أعداءه ، وكان يقول :

إني جلد يا رسول الله فوجهني في حوائجك ومرني بما شئت – رواية أحمد عن أنس – (وسيرة ابن كثير جـ ٣ ص ٥٢) .

انتصار رائع للإسلام المحرّك ، وللرسول المعلم والمؤدّب .

- قتال نسيبة بنت كعب المازنية الأنصارية – رضي الله عنها – التي قامت تذب عن رسول الله ﷺ بالسيف وترمي بالقوس ، حتى خلصت الجراح إليها ، وسقطت مغشيا عليها .(سيرة ابن هشام جـ٣ ص ٩٩٥)

حتي المرأة جعلها الإسلام بطلة تصمد في وجه طوفان الأعداء الزاحف وجعلها الحبُّ للرسول المعلم تجعل من جسدها الرقيق ترسا يصد عنه رميات السهام ، وضربات السيوف .

دليل آخر علي انتصار الإسلام وانتصار الرسول المربي..

- ما أصاب الرسول القائد – صلوات الله وسلامه عليه – في هذه المعركة الضارية فقد شج في جبهته حتي سال الدم علي وجهه فاخضل لحيته، وجرح في شفته السفلى ، وكسرت رباعيته اليمنى، وأصيبت وجنته الشريفة حتى دخلت فيها حلقتان من حلق المغفر، ووقع في حفرة وأصيب بخدش في ركبته.

هذه المواقف الرائعة أظهرتها محنة الهزيمة ، وما أصاب الرسول القائد – صلوات الله وسلامه عليه – وهو إخبار لأمته بدمائه الطاهرة التي خطت أعظم صفحات البطولة علي وجه التاريخ بأن كل شيء في سبيل الله يهون ، وأن صموده أمام جحافل الأعداء بعد فرار المسلمين هو انتصار للإسلام الذي جاء به ، وانتصار الإسلام أهم من كسب معركة أو خسارة معركة .

وأن ثبوت القلة معه واستشهادهم في سبيله هو انتصار باهر للإسلام وللرسول المعلم والمربي في تلك المعركة.

وهكذا كانت تلك المعركة هزيمة للمسلمين، وانتصارا في نفس الوقت للإسلام وللرسول ، وأن بقاء الإيمان في الصدور هو أعظم من كل كنوز الدنيا ، وبه يتحقق النصر النهائي، فيجب علي المسلمين إذا خسروا معركة أن لا ييأسوا من النصر ولا يحزنوا علي ما أصابهم من هزيمة وقتل وجراح

فالمعارك قائمة بين المسلمين ، وأعدائهم حتى قيام الساعة ، قال تعالى :

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(١٥٣: آل عمران) .

أشارت الآية الكريمة إلى شجاعة الرسول ، وأن الغم الذي ملأ نفوسهم من ضياع الغنيمة والهزيمة في مقابل الغم الذي أدخلوه على الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بعصيانهم أوامره ، ونسيانهم تحذير الله لهم من التعلق بعرض الدنيا الزائل ، وترك الإثخان في المشركين الحاقدين على الإسلام ، المتربصين به ، ولا شك أن الهزيمة المذكرة بتعاليم الله وطاعة الرسول أفضل ملايين المرات من الانتصار المنسي عن طاعة الله ، وطاعة الرسول .

١٢- حمراء الأسد انتصار للإسلام وللرسول وللمسلمين :

خرج الرسول القائد على رأس جيشه يوم أحد ليزيل آثار هزيمة أحد إزالة تامة ، ويرفع روح جيشه المعنوية ، ويلقي الرعب في قلوب أعدائه.

فخرج يطارد قريشا حتى وصل إلي حمراء الأسد ، وأقام فيها ، وأشعل جيشه نيرانا كثيرة ، ألقت الرعب في قلوب أعدائه ، وتحداهم وهم المنتصرون بالأمس ثلاثة أيام بجيشه المثخن بالجراح أن يعودوا لمعركة جديدة ، ولكنهم خافوا الهزيمة ، ليقينهم أن هذا الذي حصلوا عليه خطفوه من المسلمين في لحظة ضعف لهم أمام عرض الدنيا .

وتأكدهم أن الهزيمة من نصيبهم حتما ، لو تجرعوا ودخلوا مع المسلمين في مواجهة جديدة .

وقد تأكد لهم الخوف أكثر من المسلمين لخروجهم في طلبهم صبيحة يوم معركة أحد ، تلك المعركة القاسية المريرة التي حشدت قريش لها كل

قواتها على مدى عام كامل ، منذ بدر حتى استطاعت في النهايــة مواجهــة المسلمين في معركة أحد.

فإذا خرج المسلمون لهم صبيحة يوم أحد يطلبون الاشتباك معهــم ، دل هذا علي أن الهزيمة كانت عند المسلمين كبــوة عارضــة ، اســتفاد منهــا المسلمون .

وها هم يخرجون وقد تداركوا خطأهم في تصميم أكيد على الإمــساك بقرني النصر ، مع إيمان في ثبات الجبال بنصر الله لهم ، وما النصر إلا من عند الله – سبحانه وتعالى–.

ومن هنا آثرت قريش الانسحاب بجيشها ، بل الفرار كاللص بنــصرها المختلس، حفاظا علي ماء وجهها أمام العرب.

وقد أثبت الرسول القائد بهذه الحركة البارعة عظمته القيادية ، وأعطى المسلمين درسا عمليا في الإيمان بنصر الله – سبحانه وتعالى–.

وقد عاد الرسول ﷺ إلى المدينة مع قواته ، وقد عادت لهم ثقتهم الكاملة بأنفسهم ، وارتفعت روحهم المعنوية ، واستمرت هيبتهم في قلوب أعدائهم .

١٣– سرية أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي :

استطاع رسول الله ﷺ بغزوة حمراء الأسد أن يوطــد هيبــة الإســلام والمسلمين في المدينة وأنحاء الجزيرة .

ولكن أخبرته عيونه اليقظة بأن بني أسد بقيادة زعيمهم طليحة يجمعون الجموع لمهاجمة المدينة ، وكان مبدأ الرسول القائد أن الهجــوم هــو خيــر وسيلة للدفاع .

ولذلك سارع الرسول بإرسال سرية يقودها البطل أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي صاحب الهجرتين ، ومن السابقين إلى الإسلام ، وابن عمة رسول الله وأخوه من الرضاع ، وكان ذلك بعد شهرين من غزوة أحد ، وسارت السرية ، وتعدادها مائة وخمسون رجلا متبعة الخطة التي رسمها لهم رسول الله ﷺ ، وهي السير ليلا ، والاستخفاء نهارا ، وسلوك طريق غير مطروق حتى يمكنهم مفاجأة العدو بهجوم خاطف حاسم سريع مريع ، ونفذ القائد المقدام الخطة تماما .

وفي عماية الصبح وفي أثناء تنفس النهار ليستيقظ من خيمة الليل السوداء ، استطاع أبو سلمة تشتيت بني أسد ومن حالفهم ، وعادت السرية مظفرة تحمل الغنائم .

فأبقوا الخمس لله ولرسوله وللمساكين وأبناء السبيل ووزعوا الباقي على أنفسهم ، وتوفي أبو سلمة – رضي الله عنه– بعد ذلك بقليل ؛ لأن جرحه بأحد سال بالدم من الإجهاد في هذه الغزوة .

وقد استطاعت هذه الغزوة المظفرة أن تمكن لهيبة المسلمين بالإضافة لغزوة حمراء الأسد .

عبد الله بن أنيس وعمله الفدائي الرائع :

واستطاع عبد الله بن أنيس أن يقوم بمهمة الكوماندوز في العصر الحديث، فقد بلغ الرسول ﷺ من مخابراته الساهرة أن خالد بن سفيان الهذلي يجمع الناس لغزو المدينة في عرنة .

فأرسل عبد الله بن أنيس الفدائي الجسور ليتأكد من هذا الخبر، فالتقي عبد الله وخالد وهو مع نسائه يرتاد لهن منزلا ، فاستدرجه عبد الله بعيدا عنهن وذلك بعد أن تأكد منه أنه يجمع لغزو المدينة ثم افترسه كالأسد

الضاري ، وتركه قتيلا ، وعاد إلى المدينة بعد أن عطل هذه الحملة بقتل قائدها .

وهنا فكرت بنو لحيان من هذيل في الثأر لقائدها القتيل من المسلمين فكان يوم الغدر بالرجيع .

* * * *

عام أحد قمة الاختبار والتمحيص لعظمة التضحية وثبات الإيمان لدى المسلمين

١- يوم الرجيع :

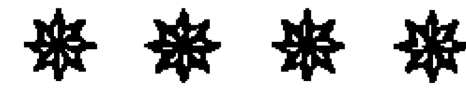
أمكنت الفرصة بنو هذيل من الثأر لقائدهم خالد بن سفيان حيث وصلت مجموعة من المسلمين تعدادها ستة أفراد ، أرسلها الرسول ﷺ لتعليم قبيلة مجاورة لبني هذيل أمور دينهم ، وشريعته ويتلون عليهم كتاب ربهم . فلما كانت هذه الجماعة بالقرب من ماء لهذيل ، قامت عليهم هذيل بكل جموعها فقتلت أربعة ، وأخذت زيد بن الدثنة وخبيبا أسيرين حيث باعتهما من قريش ، فقلتهما قريش بقتلاها في بدر.

٢- يوم بئر معونة :

ثم كانت مذبحة بئر معونة لواحد وأربعين من خيار المسلمين ، أرسلهم الرسول القائد في جوار أبي براء عامر بن مالك العامري ملاعب الأسنة ، وذلك لدعوة قبائل نجد للإسلام بمشورة أبي براء عامر بن مالك ، فلما كانوا عند بئر معونة في أرض بني عامر جمع لهم عامر بن الطفيل بعض القبائل المشركة الكارهة للإسلام من الأعراب الغلاظ القلوب ، حيث دارت معركة غير متكافئة ، انتهت باستشهاد أبطال المسلمين جميعًا من حملة كتاب الله

ودعاة الإسلام ، ماعدا كعب بن زيد وعمرو بن أمية الضمري البطل الفاتك الذي كان يسبق الخيل في العدو ، والذي صادف عند عودته إلى المدينة مع صاحبه رجلين من القبائل التي غدرت بأصحابه الكرام ، فانتهز فرصة نومهما ثم قتلهما وأخبر الرسول القائد بذلك ، فظهر أن الرجلين من بني عامر ومعهما عقد جوار من رسول الله ﷺ الذي قرر على الفور أن يؤدي ديتهما لأهلهما.

لقد كان لهاتين المذبحتين لشهداء المسلمين في هذا العام الحاسم أسوأ الأثر على نفوس المسلمين ونفس الرسول القائد ولكنهم تذرعوا بالصبر والتسليم لقضاء الله – سبحانه وتعالى–.



اليهود والمنافقون

يفرحون لما أصاب المسلمين في الرجيع وبئر معونة

١٤- غزوة النضير :

وقد أظهر اليهود والمنافقون الفرح والسرور لما أصاب المسلمين في هاتين المذبحتين الغادرتين ، وحينما ذهب الرسول ﷺ إلى يهود بني النضير يستعين بهم في دفع دية القتيلين من بني عامر ، باعتبار اليهود حلفاء بني عامر، همت اليهود بالغدر برسول الله ﷺ ، إذ دبروا إلقاء حجر على رأس الرسول وهو جالس بجوار جدار لهم ، فأخبر الوحي بذلك الرسول ﷺ فعاد إلى المدينة وجهز جيشه وقام بمحاصرة اليهود في ديارهم ، في شهر ربيع الأول ، واستمر حصارهم ست ليال ، ونزل تحريم الخمر في هذه الأثناء .

وكان زعماء المنافقين وعلي رأسهم عبد الله بن أبى بن سلول قد بعثوا

لليهود يحرضونهم علي الثبات للحصار ، وأنهم سيقاتلون معهم ، وإن أخرجوا من ديارهم خرجوا معهم ، ثم نقضوا عهدهم معهم .

وألقى الله – سبحانه وتعالى – الرعب في قلوبهم ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم من ديارهم ، ويكف عن دمائهم علي أن لهم ما حملت الإبل من الأموال غير السلاح ، فوافق الرسول الرحيم على تلك الشروط ، فمنهم من هاجر إلى خيبر ، ومنهم من هاجر إلى الشام – ابن هشام جـ ٣ ص ١٩٠، ١٩١.

سماحة الإسلام ورحمة الرسول تتجلى في معاملة بني النضير:

هل الإسلام يقوم علي إرغام الناس علي الدخول فيه بالسيف ؟!.. لو كان الأمر كذلك كما يدعي أعداء الإسلام ، فلماذا لم يرغم الرسول ﷺ هؤلاء الأسرى على الإسلام وهم الذين فكروا في اغتياله والقضاء علي الإسلام؟!

حقا لقد صدق في أعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم قول رسول الإسلام (إذا لم تستح فاصنع ما شئت).

ولا شك فى أن إخراج اليهود من بني النضير من المدينة من أعظم الأدلة على سماحة الإسلام ، ورحمة الرسول القائد .

وخير دليل علي أنه حقا رسول من عند الله رب العالمين ، أرسله رحمة للعالمين ؛ لأنه لم يغضب لنفسه ، وينتقم من هؤلاء اليهود الذين أرادوا الغدر به شر انتقام .

إذ جرت سنن الطبيعة البشرية على أن الإنسان يغضب لنفسه أشد أنواع الغضب .

وقد ذكر لنا التاريخ عن قـادة قتلـوا عـشرات الألـوف وحبـسوهم واعتقلوهم وعذبوهم لمجرد الخوف منهم فضلا عن التفكيـر العملـي فـي اغتيالهم .

أموال بني النضير قوة للمسلمين :

وزع الرسول أرض بني النضير، وكذلك ما بقي مـن أمـوالهم علـي المهاجرين ، فعوضهم الله – تعالى– عن أموالهم التي اغتصبها منهم قـريش في مكة ، واستغنوا عن معونة إخوانهم الأنصار ، ووزعت الأسـلحة التـي تركوها على المسلمين فزادوا قوة ، وكبت الله المنافقين وما بقي من اليهود .

١٥- بدر الآخرة :

استدار العام منذ معركة أحد ، وجاء موعد بدر الذي حدده أبو سفيان فـي غزوة أحد للمسلمين لملاقاته في مواجهة عسكرية شاملة حيث قـال عقـب انتصار المشركين في أحد في غرور وزهو: (يوم بيوم بدر الموعد العـام المقبل) وكان العام عام جدب وتكاسل المسلمون عن الخروج ، وخـصوصا بعد إرهاب أبي سفيان للمسلمين بأنه جمع لهم قوة لا طاقة للمسلمين بها .

ولكن الرسول القائد ﷺ غضب لهذا التراجع والتخـاذل وصـاح فـي المسلمين في عزم يدك الجبال وشجاعة تفوق الخيال :

(إنه ذاهب إلى بدر، ولو ذهب وحده). فخرج المسلمون جميعا مع قائدهم ﷺ ، حيث عسكروا ببدر ثمانية أيام متوالية ، بـاعوا خلالهـا واشـتروا ، وربحوا كثيرا في تجارتهم تلك .

أما قريش فقد خرجت بقيادة أبي سفيان بن حرب في أكثر مـن ألفـي رجل ، لكنهم جبنوا عن لقاء المسلمين ، ورجع بهم قائدهم أبو سـفيان بعـد

مسيرة يومين ، بحجة أن الحرب لا يصلح لها إلا عام خصب وخير لا عام جدب ، فعاد المسلمون إلى المدينة بفضل من الله ونعمة ، وقد محت تلك الغزوة آثار أحد تماما .

وتبين لكل قبائل العرب أن نصر قريش كان نصرا يتيما مختلسا في لحظة ضعف من المسلمين ، وأن هذا النصر لا يمكن أن يتكرر مرة أخري.

❋ ❋ ❋ ❋

بدر الآخرة تظهر تحول الموقف العسكري تحولا كاملا لصالح المسلمين

كان انتصار المسلمين في بدر الآخرة بانسحاب الأعداء دون حرب وجبنهم عن مواجهتهم مع أنهم مكثوا عاما يعدون أنفسهم لمواجهة مع المسلمين خير دليل علي انقلاب الموقف العسكري بين المسلمين وقريش لصالح المسلمين انقلابا كاملا ، لم تعد بعده قريش تجرؤ علي مقابلة المسلمين بمفردها ، دون الاستعانة بالكثير من قبائل العرب ، كما سنرى ذلك في الخندق .

وكانت هذه الغزوة المباركة هي نقطة الانطلاق لنشر نور الله - سبحانه وتعالى - في كل أنحاء الجزيرة وشرق العالم وغربه.

١٦- غزوة دومة الجندل :

وقعت هذه الغزوة في ربيع الأول سنة خمس هجرية ، وهذه الغزوة لها ملامحها المميزة .

لأنها أول غزوة يقودها الرسول القائد ، ويصل بها إلى واحة دومة الجندل

علي الحدود بين الحجاز والشام الخاضع للإمبراطورية الرومانية ، وكان بين هذا المكان ودمشق عاصمة الشام خمس ليال لا غير ، وكان الغرض من هذه الغزوة تأديب أهالي هذه المنطقة المتاخمة لحدود الشام الرومانيـــة ، الـــذين يعتدون علي الآمنين ، ويقطعون طرق التجارة ، ويفكرون في غـــزو دولـــة الإسلام الناشئة المشرقة بنورها على العالم .

وذلك اعتمادا على قوة الإمبراطورية الرومانية التي يـــدينون لهـــا بـــالولاء والعمالة.

وقد استطاع الرسول القائد بجيشه الذي لا يزيد تعداده عن ألف من الجنود ، وبإتباع خطة المفاجأة الكاملة ، بسيره ليلا وكمونه نهارا أن يلحق الهزيمـــة المريرة بتلك القبائل الكثيرة العدد والعذة ، وأن يبدد شملهم ، ويغنم الكثير من أموالهم .

وقد عاد الرسول القائد ﷺ بعد شـــهر إلـــى المدينـــة ، بعـــد أن حـــذر الإمبراطورية الرومانية ومن يدور في فلكها من قبائل العرب بأن أمة الإسلام الفتية الناشئة لن تتهاون في كبح جماح المعتدين ، ولن تتوانى عن إقامة العدل في كل بقاع الأرض العربية ، وأن هذه الأمة المسلمة المشرقة بنورها علـــي العالم المظلم بالشرك والظلم والاستبداد لا تخاف قيصر بعدده وعدته.

ولا شك أن هذه الغزوة المباركة قد حققت كل أهدافها ، ووطدت هيبـــة الإسلام والمسلمين في كل بقاع الجزيرة العربية ، وفتحـــت الطريـــق أمـــام مواصلة الزحف الإسلامي الذي يحمل مشاعل النور والعدل والتوحيـــد إلـــى ربوع الإمبراطورية الرومانية فيما بعد .

١٧- غزوة ذات الرقاع :

وقد انتصر فيها الرسول القائد على غطفان الذين كانوا يريدون حربه ، ففاجأهم بأربعة من جنوده الأبطال فشتت شمل الرجال ، وغنم المسلمون نساءهم ومتاعهم ، وعادوا فرحين بالنصر والغنيمة .

١٨- غزوة بني المصطلق:

كانت هذه الغزوة في شهر شعبان سنة خمس من الهجرة ، وقد أسرع الرسول القائد - صلوات الله وسلامه عليه - بالهجوم على بني المصطلق حينما علم بجمعهم الجموع لمحاربته ، وكان جيشه يتكون من سبعمائة من الرجال الأبطال.

وكان هدف الرسول القائد بهجومه المفاجئ هو إجهاض قوة العدو بمفاجأته بالهجوم قبل كمال استعداده ، وإتباعا للحكمة العسكرية القائلة بأن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع ، وهي سياسته ﷺ وقد فاجأهم الرسول القائد وهم غافلون عند ماء لهم يسمى المريسيع فقتل منهم عشرة وسقطوا جميعا أسري. وأخذت نساؤهم وأطفالهم سبايا، وغنم المسلمون كل أموالهم . وكان الرسول القائد ﷺ يستطيع قتلهم جميعا لمساعدتهم قريشا في غزوة أحد ومبادأته بالعدوان ، ولكنه بعد أن نجحت سياسته العسكرية العظيمة ، بالمفاجأة والهجوم الكاسح ضرب مثلا عاليا في التسامح والرحمة ، فتزوج بجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق لهدف نبيل .

فلما علم المسلمون بذلك الزواج المبارك قالوا : (أصهار رسول الله يسترقون ؟! ...) فأطلقوا كل من بأيديهم .

قالت السيدة عائشة - رضي الله عنها- : (فلقد أعتق رسول الله

بتزوجه جويرية مائة أهل بيت من المصطلق ، فما أعلم امرأة كانت أعظم علي قومها بركة منها).

وتدل هذه الشهادة من أحب زوجات الرسول إليه ، وهي السيدة عائشة علي حكمة زواج الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – من أم المؤمنين جويرية ألا وهي إعتاق هذه القبيلة العربية العظيمة من السبي والرق ، بأسلوب حكيم من المعلم الحكيم والقائد الرحيم .

فلو أنه طلب ذلك من المسلمين بغير هذا الزواج ، لكرهوا ذلك وسرت الفتنة بينهم لترك ما بأيديهم من أسرى وسبايا.

ولكنهم دللوا بإطلاقهم سراح الأسرى والسبايا على مدى حبهم لرسول الله ورحمة قلوبهم ، وتغلغل تعاليم الإسلام الرحيمة في نفوسهم وأرواحهم .

وترتب على هذا التصرف الحكيم من الرسول وأصحابه ، أن أسلمت كل قبيلة بني المصطلق عن طواعية واختيار.

فأين الإكراه علي الإسلام بالسيف يا أعداء الله والحق والإنصاف من المستشرقين الصليبيين ؟! ..

أين الإرغام ولو كان موجودا لكان خير مجال لممارسته هم هؤلاء الأسرى الذين يحكم عليهم المسلمون قبضتهم الحديدية ، ولكن إسلامهم عن طواعية دليل على كذبكم وبهتانكم ، والله متم نوره ، ولو كره الكافرون.

١٩- غزوة الخندق :

كانت في شوال سنة خمس من الهجرة.

وقد استطاع زعماء يهود بني النضير – الذين أجلاهم الرسول عن المدينة بعد خيانتهم له – أن يحملوا حقدهم وذهبوا به إلى قريش وقبائل العرب

المختلفة الحاقدة علي الإسلام والمسلمين ، واستطاعوا جمع الجموع الكثيفة للقضاء على الإسلام والمسلمين في زعمهم ، وكان هؤلاء الزعماء هم سلام بن أبي الحقيق النضري ، وحيى بن أخطب النضري ، وكنانة بن أبي الحقيق النضري .

وتحقيقا لهدفهم لم يمنعهم معرفة الحق من الشهادة لقريش بأن دينهم الوثني خير من دين محمد ، دين الحق والتوحيد.

وهكذا اليهود دائما : الغاية عندهم تبرر الوسيلة .

فخرجت قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب ، ومعها غطفان ، في قوادها عيينة بن حصن في بني فزارة ، والحارث بن عوف في بني مرة ، ومسعر بن رخيلة في أشجع .

حفر الخندق بمشورة سلمان الفارسي :

وقد أخذ الرسول القائد – صلوات الله وسلامه عليه – بمشورة الصحابي الجليل سلمان الفارسي – رضي الله عنه–.

ففاجأ المشركين بعمل حربي دفاعي لم تعرفه العرب قبل ذلك ، وهو حفر خندق حول المدينة ، في أضعف منافذها ، وتحصين داخلها.

وقد عمل الرسول القائد مع جنوده في حفر الخندق ؛ ليعطي القدوة ، والمثل الأعلى ، ولإثارة الحماس في جنوده الأبطال ، فانتهوا منه في ستة أيام ، ووضعت الأحجار إلي جانب الخندق من ناحية بيوت المدينة . لاستخدامها ضد العدو عند الحاجة ، وحصنت المنازل القريبة من الخندق . واستعد المسلمون لملاقاة أعظم قوة حشدها العرب واليهود ضدهم ، واشترك فيها العرب واليهود معا ، وكان الهدف من حشد هذه القوة هو القضاء على

الإسلام والمسلمين ورسول الإسلام ، وإطفاء نور أمة الإسلام الذي أشــرق بالتوحيد والرحمة والعقل والحكمة والإخاء والمــساواة والحريــة والتــسامح والعلم والإيمان والحضارة ، وتكريم الإنــسان ، والــشورى بــين الحــاكم والمحكوم ، وحرية الرأي والفكر والعقيدة .

دهشة العدو من هذا الأسلوب الحربي المبتكر :

وجاءت جحافل قريش وغطفان واليهود في أكثر من عشرة آلاف رجل.

فأصيبت بالدهشة الصاعقة من رؤية الخندق ، هذا الأسلوب العــسكري الجديد الذي لم يكن للعرب به عهد من قبل ، وعسكر المشركون أمام الخندق وقد أدركوا لأول وهلة ، أنهم سيبقون أمام الخندق طويلا .

وكان يواجههم جيش الإسلام العظيم في ثلاث آلاف رجــل ، وجعــل الرسول القائد - صلوات الله وسلامه عليه - الخندق بين المسلمين وأعدائهم وجعل ظهور المسلمين محمية بهضبة سلع ، و بيوت المسلمين في المدينة .

وضرب الرسول القائد خيمته الحمراء ليقود منها جيشه الــشجاع المحــب للموت كحب الأعداء للحياة.

تبادل الرماية بين الجيشين :

ولم تستطع قريش وحلفاؤها اجتياز الخندق لعمقه وســعته ، وحراســة المسلمين اليقظة له .

فاستمرت الرماية بين الجيشين عدة أيام متتابعة ، وكانت الطبيعة بأمر الله خالق القوي والقدر ، القاهر الجبار، تحارب مع المسلمين ، حيــث كــان الوقت شتاء ، اشتد برده بأمر خالق السموات والأرض ، حتى كــاد يحــول الأجساد إلى قطع ثلجية بيضاء لامعة ، واشتدت العواصــف بــأمر الواحــد

القهار حتى كادت تقلع الجبال من قبضة الأرض الحديدية ، وأوشكت أن تجعل الأشجار كالريش تعلو به الرياح ، ويتلاعب به الهواء ، وكست السحب القاتمة السواد الثقيلة الحركة المنتفخة البطن كامرأة حامل في أيامها الأخيرة وجه السماء ، وأطفأت أنوار الشمس ، وأوحت بقرب ولادتها سيولا من الماء المكتسح لكل ما أمامه ، ونزلت جحافل من الملائكة لتكون مع المسلمين ، ولحمايتهم من أعدائهم ، والملك الواحد فيه من القوة ما يستطيع به دمار الكرة الأرضية بنفخة واحدة ، أو ضربة منفردة .

وهذه عوامل قاهرة كاسحة ، لم تضعها قريش وحلفاؤها في حسبانها ، لأن خيامهم الواهية كخيط العنكبوت ، لا تستطيع حمايتهم من سهام الشتاء المذيبة للعظام ، وعواصفه الرملية المغلقة للعيون المختلطة بالطعام والشراب وكذلك لاتستطيع تلك الخيام وقايتهم من سياط الأمطار الهاطلة بقوة ، وعنفوان وغزارة ، فكانوا ينتفضون من جنود الشتاء المتسللة إلي أجسادهم في خفة كطيور ضعيفة فوق الأشجار اخترقت قطرات المياه المتدفقة من بحار السماء ريشها الضعيف ، ووصلت إلى لحمها الأحمر الطري ، أما جنود الإسلام العظام ، فكانوا بالقرب من ديارهم ومساكنهم في وضع استراتيجي أفضل كثيرا من أعدائهم .

لا يبالون بطول أيام المعركة ، تدفئهم رحمة الله وعنايته ، ويرسل إيمانهم أشعة الدفء الممتعة إلى أجسادهم ، وتحنو الطبيعة الباسمة بأمر الله عليهم حنو النسوة المرضعات علي الأطفال الصغار الذين يستكنون في أحضانهن، ويتناولون في وداعة أثداءهن المترعة باللبن الأبيض الدافئ المنساب في شرايينهم ببذور الحياة والنمو.

وانساب رحيق اليأس المر إلى قلوب الأعداء ، فقد كانوا يتوقعون

القضاء علي المسلمين في يوم واحد مثل يوم أحد فإذا بهم يرون ذلك حلماً بعيدا يتلاشي بين ضباب اليأس وسحاب العجز والإحباط .

وحاول الأعداء من العرب واليهود محاولة أخيرة يائسة وهى خلخلة صفوف المدينة المتحدة الصامدة .

وذلك باستخدام ورقة يهود بني قريظة سكان المدينة ، وحثهم علي نقض معاهدة السلام بينهم وبين المسلمين ، وخيانة المسلمين، وطعنهم في ظهورهم وذلك بالانضمام لأعدائهم وإعلان الحرب عليهم .

واستطاع حيي بن أخطب أن يقنع زعماء يهود بني قريظة بخيانة المسلمين ، في هذه اللحظات الحاسمة المصيرية ، فنقضوا عهدهم ، وأنهوا معاهدة حسن الجوار بينهم وبين الرسول والمسلمين ، وعلم الرسول القائد ﷺ بتلك الخيانة وتأكد منها عن طريق رسله إلى بني قريظة ، وهم سعد بن معاذ زعيم الأوس ، وسعد بن عبادة زعيم الخزرج ، وعبد الله بن رواحة شاعر الأنصار ، وخوات بن جبير – رضي الله عنهم–.

وحاول سعد بن معاذ – رضي الله عنه – زعيم الأوس ، وهم حلفاء يهود بني قريظة في الجاهلية قبل الإسلام إقناعهم بالمحافظة على عهدهم مع الرسول ، والتمسك بمعاهدة حسن الجوار مع المسلمين ، وترك الخيانة والغدر بالمسلمين في هذا الوقت العصيب ، فرفض كعب بن أسد زعيم بني قريظة ورفض زعماء اليهود ترك الخيانة ، وخانوا رسول الله رَحمة العالمين ، وسبُّوه سبًّا قبيحًا.

فتركهم المسلمون قائلين لهم : (ما بيننا وبينكم الآن أعظم من السباب ، بيننا وبينكم الدم الأحمر القاني الذي تحفر له السيوف في أرض الأجساد الخائنة).

قوة إيمان الرسول القائد بنصر الله في هذا الموقف العصيب الرهيب

وزلزل المسلمون لهذا الخبر الصاعق ، وبلغت القلوب من الخوف الحناجر. وكادت تخرج من الأفواه .

قال تعالى : واصفا حال المسلمين في هذا الموقف الرهيب أبلغ وصف:

قَالَ تَعَالى : ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (١٠/ ١٣: الأحزاب)

وحينما أقبل السعدان ومن معهما وأخبروا رسول الله ﷺ بغدر اليهود من بني قريظة .

لم يتزلزل كما تزلزل المسلمون ، ولم يضطرب كما يضطرب أعظم القادة عند مثل هذا النبأ ، بل نطق بما يدل خير دلالة علي أنه رسول الله رب العالمين حقا وصدقا ، فصاح عند سماعه الخبر الرهيب :

(الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين بالنصر).

حقا ، الله أكبر من كل قوة ، ومن كان الله معه ، فالنصر يسير في ركابه حتما مهما تضافرت القوي ، وتكالب الأعداء.

لقد بشر الرسول القائد أمته عند حفر الخندق بأن الله سيفتح علي أمته اليمن والشام والمغرب والمشرق ، وسوف ينصرهم الله علي جيوش كسرى

وقيصر كبيري ملوك الأرض ، وزعيمي أعظم قوتين في ذلك الزمان ، ووعد الله حق ، وبشارة الرسول واقعة لا محالة .

وثقة الرسول في النصر في هذا الموقف الرهيب تدل خير دلالة على صدقه ، وإيمانه الكامل بنصر الله له ولأمته .

وثباته ورباطة جأشه في تلك المحنة ، تدل علي عظمة قيادته ، وأنه حقا أعظم قواد العالم في جميع العصور ، فأي قائد في التاريخ نزلت به مثل تلك الكارثة ، ثم صاح في جنوده بأن النصر حليفهم بكل ثقة وإيمان وتأكيد؟! ... كلا . كلا.لم يعرف العالم مثل هذا القائد مطلقا .

سياسة الرسول القائد في ضرب تحالف الأحزاب واليهود :

أثبت الرسول القائد ﷺ أنه سياسي من أعظم الساسة في جميع العصور.

إذ حينما أتاه نعيم بن مسعود الغطفاني مسلمًا ، ولم يعلم أحد من قومه بإسلامه ، أمر الرسول باستخدام جهل الأحزاب بإسلامه في فك التحالف بين الأحزاب وبين يهود بني قريظة .

وقد نجح نعيم بن مسعود في ذلك تمام النجاح ، إذ قال لليهود :

(إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون أن تحولوا منه إلي غيره ، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فإن رأوا نهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ، ثقة لكم علي أن تقاتلوا معهم محمدا حتي تناجزوه) فقالوا له : لقد أشرت بالرأي ، ثم

ذهب إلى الأحزاب ، فقال لهم : (تعلمون أن معشر يهود قد ندموا علي ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه : أنا قد ندمنا علي ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم ، فنعطيهم لك فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك علي من بقي منهم حتي نستأصلهم .

فأرسل إليهم أن نعم ، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا) (ابن هشام ج٣ ص ٢٢٩، ٢٣٠) .

وهكذا استطاع هذا الجندي الحكيم أن يضرب تحالف اليهود والأحزاب بعد أن نجح الرسول قبل ذلك في إدخال الشك بين قريش وغطفان بمفاوضة غطفان لترك التحالف مع قريش .

جنود الله المجهولة تعمل عملها في هزيمة الأحزاب :

وبعث الله ريحا عاصفا في ليالٍ شاتية شديدة البرد ، فجعلت تكفئ قدورهم ، وتهدم خيامهم ، وتطفئ نيرانهم.

وهنا جمع أبو سفيان بن حرب مجلس حربه وقال لهم : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلكت الخيل والإبل ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا إنِّي مرتحل ، ثم قام إلي جمله ، وهو معقول ، فجلس عليه ثم ضربه ، فوثب به ، وأسرع بجحافله إلي الديار في خيبة وخسران ، بعد أن هزمهم الله – سبحانه وتعالى – وحده، وصدق وعده لعبده ورسوله ، وأعزّ جنده المسلمين .

عرض الرسول ثلث أموال المدينة على غطفان كان خدعة سياسية :

وما قيل بأن الرسول عرض على غطفان ثلث محصول نخل المدينة لفك تحالفها مع قريش ، ورفض الأنصار ذلك كان خدعة سياسية من رسول الله

لتوهين عرى التحالف بين الأحزاب ، ولاختبار صمود المسلمين ، وإدخال الشك بين قريش وغطفان بإشاعة نبأ المفاوضة ونجح الرسول في هدفه تماما فقد يئس أبو سفيان من النصر ، وخشي من غطفان.

٢٠- غزوة بني قريظة :

كانت عقب غزوة الأحزاب مباشرة في السنة الخامسة من الهجرة ، وقد أمر الله – تعالى- رسوله ﷺ أول يوم بعد هزيمة المشركين في الخندق أن يسير إلى بني قريظة اليهود الخونة للقضاء عليهم ، فنادى الرسول القائد في جيشه الشجاع : (من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة) ، وحاصر المسلمون بني قريظة ، فسلموا أنفسهم للرسول القائد ليحكم فيهم بما شاء .

فلما شفعت فيهم الأوس للحلف الذي كان بينهم في الجاهلية ، قال لهم الرسول (ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى فقال الرسول : سيحكم فيهم سيدكم سعد بن معاذ).

حكم سعد بن معاذ في يهود بني قريظة :

وجاء سعد – رضي الله عنه – وهو جريح ، يعالج من سهم أصابه في الخندق ، فقال سعد ﷺ حينما وصل إلى رسول الله والمسلمين : (إنِّي أحكم فيهم أن يقتل الرجال ، وتقسم الأموال وتسبي الذراري والنساء).

فسر رسول الله ﷺ لحكمه ، وقال له : (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة – سموات-) ابن هشام جـ٣ ص ٢٤٠.

وكان سعد – رضي الله عنه- قد دعا ربه قائلا :

(اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا فأبقني لها ، وإن لم تكن أبقيت من حرب قريش شيئا فاقبضني إليك ، ولا تقبضني حتى تقر عيني من

بني قريظة ، الذين خانوا رسولك - صلوات الله وسلامه عليه -).

وقد استجاب الله دعاءه الطاهر وأقر عينه من بني قريظة ؛ فحكم فيهم هو بما شاء ، ثم انفجر جرحه فقبضه الله إلى جنته ، واهتز عرش الرحمن شوقا للقائه ، ولم يهتز لأحد قبله ﷺ وقد صار الإعدام هو الجزاء العادل للخيانة العظمي في كل دول العالم المتحضرة في القرن العشرين .

وقد طبق عليهم الرسول ﷺ هذا الحكم لخيانتهم العظمى له وللمسلمين ، ونقضهم عهده ، ومحاولتهم القضاء علي المسلمين بطعنهم في ظهورهم ومعاونة أعدائهم عليهم .

وطبق الرسول القائد أيضا عليهم شريعتهم القائلة لهم في كتبهم :

(حين تقرب من مدينة لكي تحاربها ، استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح ، وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، ويستعبد لك ، وإن لم تسألك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلي يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك) الإصحاح العشرين من سفر التثنية عدد ١٠ وما بعده.

وهكذا تطهرت عاصمة الإسلام من مؤامرات اليهود ، واستعدت أمة الإسلام لنشر نور الله في مشارق الأرض ومغاربها.

ولم تعد قريش تجرؤ بعد الخندق على الدخول في معركة حاسمة ضد المسلمين ، لقد تحولت دفة الحرب بعد الخندق ، وبني قريظة لصالح المسلمين تماما ، وصاروا هم المهاجمون ، وتكتفت قريش بأغلال الدفاع ، حتي فتح مكة وانهيارها النهائي أمام جيوش الحق الزاحفة .

٢١-غزوة بني لحيان في جمادى الأولى سنة خمس من الهجرة :

أراد الرسول ﷺ القصاص من بني لحيان لغدرهم بأصحاب الرجيع من المسلمين.

وقد أظهر الرسول القائد أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة ، وحينما وصل إليهم بجيشه الباسل وجدهم قد حذروا ، وتحصنوا برؤوس الجبال .

٢٢- غزوة عسفان قرب مكة :

لم يرد الرسول الرجوع إلى المدينة بعد غزوة بني لحيان من غير تحقيق هدف مهم لهذه الحملة ، فأمر جيشه بالهبوط إلى عسفان قرب مكة قائلا: (لو أنا هبطنا عسفان لرأي أهل مكة أنا قد جئنا مكة) – ابن هشام جـ٣ ص ٢٨٠،

وقد أراد الرسول بهذا العمل العسكري إرهاب قريش وتحطيم روحها المعنوية تماما ، وإفهامها : أنه بنصر الله للمؤمنين في غزوة الأحزاب تحولت المواقف لصالح أمة الإسلام المشرقة ، وأن النصر النهائي هو من نصيب المسلمين .

٢٣- غزوة ذي قرد في جمادى الأولى سنة خمس من الهجرة :

سببها:

أغارة عيينة بن حصن الفزارى في خيل من غطفان علي لقاح الرسول ﷺ بالغابة ، وقتلهم الراعي وسبيهم للمرأة ونهبهم للنوق .

وقد استطاع المسلمون بقيادة رسول الله من اللحاق بالمغيرين ، وقتل بعضهم واستنقاذ بعض النوق ، وقد فر المغيرون يحملون عار الهزيمة والجبن ، وقد دلل الرسول القائد بخروجه في هذه الغزوة في سرعة مذهلة ،

وحزم كامل علي يقظة المسلمين ، وعلى أن دفاع المسلم عن ماله وعرضه من أعظم أنواع الجهاد .

٢٤- غزوة الحديبية :

زمانها :

وقعت في آخر السنة السادسة من الهجرة ، حيث خرج الرسول القائد ﷺ في شهر ذي القعدة في ألف وأربعمائة من المسلمين لأداء العمرة ، فكانت غزوة سلام وزيارة مشتاق لبيت الله الحرام ، ولكن قريشا جعلتها غزوة صدام ثم صلح وفك الحرب والخصام .

خليفة رسول الله علي المدينة :

وقد استخلف الرسول علي المدينة نميلة بن عبد الله الليثي -رضي الله عنه-.

الرسول يدعو العرب جميعا لأداء العمرة معه :

وقد قام الرسول ﷺ بدعوة العرب جميعا ، وخصوصا القبائل التي تقيم حول المدينة من غير المسلمين للخروج معه لأداء العمرة ، ليثبت لقريش أنه ما خرج إلي مكة للحرب والقتال ، بل لأداء العمرة وزيارة بيت الله الحرام ، ومشاهدة مواطن الطفولة والشباب في أم القرى التي احترقت القلوب شوقا للارتواء من ينابيع جمالها وطيب هوائها.

قريش ترسل فرسانها لمنع المسلمين من دخول مكة

لم يخرج مع الرسول والمسلمين أحد من المشركين من قبائل العرب التي دعاها الرسول القائد للخروج معه لأداء العمرة ، فقد كانت قلوب المشركين جميعا مع قريش المشركة مثلهم ، وخشوا أن يكون خروجهم مع

الرسول هو بمثابة الاعتراف بالدين الجديد ، وهو أيضا بمثابة التأييد المعنوي للمسلمين على قريش .

الذي لا شك فيه أن الرسول القائد والسياسي الحكيم البعيد النظر كان يقصد هذا حقا ، ويقصد أيضا أنه ما خرج للحرب والقتال ، بل لممارسة حق عام لكل أهل الجزيرة ، وهو زيارة البيت الحرام وأداء العمرة ، وأن قريشا تكون ظالمة ومعتدية وباغية على المسلمين إذا منعتهم من أداء العمرة والزيارة ، فتسقط منزلتها أمام هؤلاء العرب كأمينة على البيت الحرام ، وسادنة له ، ومحافظة علي حرمته ومكانته .

وأراد الرسول أيضا أن يثبت للعرب جميعا أن المسلمين لا يريدون الحروب وسفك الدماء بل يريدون السلام وصيانة الدماء ، وحرية العقيدة . وأنهم لا يسعون إلي الحرب حتى تسعى إليهم .

وحينما علمت قريش بخروج المسلمين من المدينة لأداء العمرة قررت منع المسلمين من دخول مكة بالقوة ، وعبأت فرسانها بقيادة خالد بن الوليد ، واستعدت لمحاربة المسلمين بكل ما تملك من قوة ، وسار خالد بن الوليد حتى نزل بذي طوى ، منتظرا قدوم الرسول القائد وجيشه المسالم .

الرسول يحول بين صدام المسلمين بقريش :

وحينما علم الرسول بطل السلام والحرب بأن قريشا قد لبست جلود النمور، ووضعت الصخر في قلوبهم ، ونيران الحقد والعداوة في صدورها ، وشحذت سيوفها ، وأعدت سهامها ، وأطالت رماحها وخرجت بالإبل الحديثة الولادة بأطفالها وهي تقسم قائلة :

(والله لا يدخل محمد علينا مكة أبدا ، ولا يتحدث العرب بذلك أبدا

قائلين : دخل محمد مكة عنوة وعجزت قريش بأبطالها عن صده ومنعه).

فقال الرسول المحب للسلام الكاره للخصام في ألم ظاهر ، وإشفاق علي أعدائه من قريش لا يعرف العالم له مثيلا من قبل :

(يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟! فوالله لا أزال أجاهد علي الذي بعثني الله به حتي يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة).

ثم قال في إيثار للسلام ، وكراهية لإسالة الدماء :

(هل من رجل يخرج بنا عن طريق غير طريقهم التي هم بها ؟)

فقال رجل من أسلم : أنا يا رسول الله .

فسلك بهم الأسلمي طريقا شديد الوعورة ، كثير الحجارة بين الشعاب وقد شق هذا الطريق الصعب على المسلمين غاية المشقة ، فلما خرجوا منه إلى أرض سهلة منبسطة عند منقطع الوادي نظر الرسول الرحيم إلى أصحابه قائلا لهم في حنان : (قولوا نستغفر الله ونتوب إليه) ، فقالوا ذلك ، فقال لهم : (والله إنها للحطة التي عرضها الله تعالى على بني إسرائيل عند دخولهم الأرض المقدسة فلم يقولوها) ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥٨ : البقرة) أي يا رب حط عنا ذنوبنا ، فلم يقولوها ، وقالوا بدلا عنها – حنطة – أي أعطنا قمحا يا رب).

حينما وصل الرسول وجيشه الشجاع إلى الحديبية ، بركت ناقة رسول الله .

فقال المسلمون : (خلأت الناقة- أي حرنت على المشي) ، فقال الرسول :

(ما خلأت ، وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة) ، ثم قال في حنان ودعة ، وابتسامة مشرقة تنير وجهه الرائع الجمال :

(والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها) ، ثم قال للناس في حزم :(انزلوا في هذا المكان)

فقال الصحابة : يا رسول الله ما بالوادي ماء ننزل عليه! ... فأخرج سهما من كنانته ، فأعطاه لناجية بن جندب المازني فنزل به في بئر ليس فيه قطرة ماء فغرزه في جوف البئر ففاض فيه الماء ، حتى امتلأت البطون والزوايا بالماء .

معجزة لرسول الله ﷺ (ابن هشام ج ٣ ص ١٩٨ – مطبعة الرياض الحديثة) فاطمأنّ بالمسلمين المكان ، وانتظروا ما يكون من قريش التي علم فرسانها بالمكان الذي نزل به المسلمون ، فسارعوا إلى مكة لحماية مداخلها من دخول المسلمين إليها .

حب الرسول للسلام ونصيحته المخلصة حتى لأخطر أعدائه :

ما أعظم الرسول القائد – صلوات الله وسلامه عليه – !... فمع عداوة قريش له ومحاربتها إياه أظهر هنا محبة عظيمة لقريش ؛ لأنهم قومه ، وتكلم في حزن عليهم بالنصيحة المخلصة غاية الإخلاص ، التي لو أخذت بها قريش لحفظت الكثير من الدماء والأموال منذ بداية دعوة الرسول ﷺ حتى فتح مكة .

كان الواجب علي قريش حقا ، وهم آل الرسول الأعظم ألا يقاوموا دعوته وإنما يقفوا علي الحياد على الأقل بين الرسول وبين قبائل العرب ، فإذا

انتصر الرسول فالأمر لهم في النهاية ، إن شاءوا دخلوا في الإسلام كما دخل فيه غيرهم!.. وإن لم يشاءوا الدخول في الإسلام قاتلوا وقد احتفظوا لهذه الحرب بكل قواهم ! وفي النهاية فالرسول ﷺ منهم وعزه عزهم وسلطانه سلطانهم .

ما أعظمك يا رسول الله ، وما أسمى نفسك وما أكبر قلبك ، وما أرق عواطفك ، تريد الخير لأقسى أعدائك ، وتسوق النصيحة المخلصة لأشد الناس حقدا عليك وكراهية لك ، وتريد السلام مع العدو الشرس الذي تستطيع أن تسحقه في معركة فاصلة ، ولكنك أعظم قواد العالم قاطبة ؛ لأنك انتصرت على كل أهواء النفس البشرية ، وغزوت قلوب أعدائك بالرحمة عليهم والعفو عنهم ، وإخلاص النصيحة لهم ، والحفاظ على دمائهم وأعراضهم وكرامتهم .

الرسول يثبت لقريش عمليا أنه ما جاء للحرب :

أولا : كان الرسول يستطيع مهاجمة مكة في مفاجأة ساحقة صاعقة بعد أن خدع فرسان قريش وسلك طريقا لم يخطر لهم أنه سيسير فيه ، ولا شك أن المفاجأة كانت ستحقق الانتصار الحاسم ، وخصوصا أن المهاجرين في جيش الرسول كانوا في غاية الشوق إلى مواطن صباهم في مكة ، وفي غاية الشجاعة ، وارتفاع الروح المعنوية ، والثقة في نصر الله لهم ، وكذلك كان حال الأنصار شجاعة وروحا معنوية وثقة في نصر الله .

وكان للرسول كل الحق في مهاجمة مكة ، لأنَّ قريشاً أعلنت عليه الحرب وحشدت فرسانها لمواجهته ، ومنعته من حق زيارة البيت الحرام الذي هو بيت الله ، ومن حق كل من يشاء زيارته.

ولكن الرسول كان يريد السلام ، وحقق الله له ذلك بأن أمر ناقة الرسول بالبقاء في الحديبية ، فلم تتقدم عن ذلك الموضع .

وقال الرسول (لقد حبسها الله سبحانه وتعالى الذي حبس الفيل عن مكـــة ، حينما أراد أبرهة هدم الكعبة ، وهذا المكوث في الحديبية دليل واضح وعملي علي أن الرسول ﷺ يريد السلام مع قريش ، ولا يسعى للحرب والقتال .

ثانيا : سقط سبعون فارسًا من قريش أسرى في يد أبطال الإسلام ، وكان الرسول يستطيع ضرب أعناقهم لإرهاب قريش ، أو أخذ الفدية عنهم لو كـــان جاء للحرب ولكنه أطلق سراحهم ليثبت لقريش عمليا أنه جاء لأداء العمرة فقط ولم يأت للحرب والقتال .

ثالثا : رأى الرسول ﷺ الحليس بن علقمة سيد الأحابيش قادما ، رسولاً من قبل قريش إلي رسول الله فقال : (إن هذا من قوم يتـــألهون ، فـــابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه) ، فلما رأى سيد الأحابيش الإبل التـــي ســـتذبح تسيل عليه من جانب الوادي ، وفي أعناقها القلائد علامة على أنها هديـــة لله ستذبح عند بيته ، رجع إلى قريش ولم يصل إلي رسول الله إعظاما لما رأى قائلا لهم : يا معشر قريش دعوا الرجل يزور بيت الله هو وأصحابه ؛ فلقـــد جاء لذلك وما جاء للحرب ، وقد رأيت الهدي الذي جاء به لذبحه عند بيـــت الله الحرام ؛ فقالوا له : اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك ، فغضب الحليس عند ذلك وقال : (يا معشر قريش وَالله ما علي هذا حالفناكم ، ولا على هـــذا عاقدناكم أيصد عن بيت الله من جاء معظما له ؟! .. والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجـــل واحـــد). فقالت له قريش وقد جزعت من تهديده لهم ، وخشيت مـــن انـــضمامه إلـــى محمد: مه كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

وهذا دليل على حكمة رأي رسول الله وبعد نظره ، حيث وقـــف ســـيد الأحابيش معه حينما رأي الهدي ، وهو من قوم يعظمون البيت الحرام غايـــة

التعظيم ، ولا يقفون أبدا في وجه من جاء لزيارته .

ولقد اقتنعت قريش بأن الرسول ما جاء للحرب بعد تلك الأدلة العملية التي أظهرها لهم رسول الله ، ولكنهم كانوا يريدون حفظ ماء الوجه أمام قبائل العرب ، فكان هدفهم أخذ بعض الشروط من الرسول حتى يأذنوا لرسول الله وللمسلمين في أداء العمرة.

عروة بن مسعود الثقفي يرى ما يخلب لبه من تعظيم المسلمين لرسول الله وحبهم له ، واستعدادهم لبذل حياتهم في سبيله .

كان عروة بن مسعود الثقفي عظيم الطائف ابن سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف يجمع بين نسب ثقيف وقريش ، وهو أحد الرجال العظام الذين قالت عنهم قريش (لولا أنزل هذا القرآن علي رجل من القريتين عظيم) تقصد من مكة والطائف – ساخرين من رسول الله محمد لفقره ، ومستعظمين عليه اختصاص الله إياه بالرسالة دون العالمين ، ولقد كانت قريش سفيهة العقل ، تاجرة ، مادية ، طغت المادة على قلوبها وأبصارها ، فلم تضع مقياسا للعظمة سوى الثراء والحسب ، وغفلت عن عظمة العقل والنفس والروح والأخلاق والقلب والإيمان ، والأمانة ، لكن الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وحينما أرادت قريش إرساله إلى رسول الله ﷺ خشي من طول ألسنتهم فقال لهم : يا معشر قريش إني قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلي محمد إذ جاءكم من التعنيت وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد – يقصد كونهم أخواله – وقد سمعت بالذي نابكم ، فجمعت من أطاعني من قومي ثم جئتكم حتى آسيتكم – شاركتكم في محنتكم .

قالت قريش : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم .

فخرج عروة بن مسعود الثقفي إلى رسول الله ليرى عظمة القائد الرسول رحمة العالمين محمد ، وتأثيره علي القلوب الصافية الطاهرة ، وليعلم يقينا أن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وليعود إلى قريش وكله ألسنة تصف عظمة محمد رسول الله ، وقائد الأبطال الميامين ، وليقول لقريش بلسان العقل والحال : لقد كنتم في غاية الجهل والغباوة حينما أردتم أن يطيع الخالق العظيم أهواء نفوسكم المنحرفة الفاسدة ، ويختارني أو يختار الوليد بن المغيرة أو غيرنا من عظماء المال، رسولا منه إليكم وإلى العالمين.

وها هو عروة بن مسعود يجلس بين يدي رسول الله ﷺ ثم يخاطبه قائلا في عتاب مرّ وصلف جاهلي :

يا محمد أجمعت أوشاب الناس– أخلاط الناس – ثم جئت بهم إلى عشيرتك لتهلكها بهم ! .. إنها قريش ..وقد خرجت ومعها النوق مع أولادها الصغار ، وقد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لا تدخل مكة عليهم عنوة أبدا ، وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا وتركوك وحيدا تحت سيوف قريش الماضية ، ورماحهم المردية .

فصاح به البطل الصنديد أبو بكر الصديق الأول والصاحب الأول للرسول القائد قائلا : وكان قاعدا خلف رسول الله :

أنحن ننكشف عن رسول الله ؟؟ .

ثم جعل عروة يكلم رسول الله ويتناول لحيته أثناء الكلام ، وكان المغيرة بن شعبة واقفا علي رأس رسول الله ﷺ وهو غاطس في الحديد . مرتديا كاملة آلة الحرب والقتال ، فكلما تناول عروة لحية الرسول بيده ، قرعه المغيرة عليها بجراب السيف ، ثم صاح به مهددا (اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ ، قبل ألا تصل إليك).

فقال عروة ويحك ! ما أفظعك وأغلظك ! ..

فتبسم الرسول القائد - صلوات الله وسلامه عليه -

فقال عروة بن مسعود : من هذا يا محمد ؟

قال رسول الله : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة الثقفي.

فصاح عروة بن مسعود متعجبا ولائما ابن أخيه : أي غدر وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس. أنسيت قتلك الثلاث عشرة رجلا من بني مالك، من ثقيف قبل إسلامك ، ولولا دفعي دياتهم من مالي لثارت الفتنة بين رهطهم ورهطك الأحلاف ، ولكنني دفعت الديات من مالي وأطحت الأمر، فهل تقول لعمك هذا الكلام أيها الغادر ؟! ..

قَالَ : نعم ، فالزم الأدب في حضرة رسول الله ، فقد غسل الإسلام ما كان قبله من أوزار والحمد لله ، وليتك يا عروة تدخل في دين الله لتكون من السعداء ، ويهدي الله علي يديك ثقيف.

- اسكت فض الله فاك.

وقال رسول الله لعروة بن مسعود مثل ما قال لأصحابه من قبل .

إنه ما جاء لحرب بل جاء للسلام وزيارة بيت الله الحرام ، وذهل عروة ابن مسعود من مكانة رسول الله في قلوب أصحابه فكان رسول الله لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه يتبركون بوضع قطرات من بقاياه علي أجسامهم ، ولا يسقط من شعره شعرة أخذوها ، وصانوها في أعز مكان بركة من رسول الله، ولا يبصق بصاقا ألا سارعوا إليه فدهنوا به أجسامهم وعطروا به ثيابهم بركة من رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه -.

ولا يتكلمون عنده إلا بصوت هامس إجلالا له ، ولا يرفعون أبصارهم إليه هيبة منه ، وإذا أمر بشيء كادوا يتقاتلون علي تنفيذ أمره ، وتحقيق إرادته.

فرجع عروة بن مسعود إلي قريش وهو منبهر من عظمة محمد قائلا لهم :

يا معشر قريش اسمعوا وعوا ، لقد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا ، وسيقاتلون حتى آخر رجل دفاعا عنه ، فروا رأيكم .

ووجمت قريش ، وأصابها الذهول والانبهار ، هذا هو عظيم الطائف جاءهم وهو ينشر في فضاء مكة عظمة محمد ، وهم الذين تمنوا سابقا لو نزل القرآن علي هذا الرجل أو الوليد بن المغيرة أو غيرهما من عظماء المال إذن كان رأيهم خطأ ، وهذه هزيمة معنوية رهيبة ، فمحمد كان بين أظهرهم ومع هذا غابت عنهم شمس عظمته الساطعة ، أدركها أصحابه المهاجرون والأنصار . أي رجل هذا الذي يفوق ملكه في قلوب أصحابه ملك كسرى عظيم الإمبراطورية الفارسية ، أو قيصر عظيم الإمبراطورية الرومانية ، أو النجاشي عظيم الأحباش ؟! وهل تستطيع قوة في الأرض الوقوف أمام هذا الرجل ، ومقارعة هذا الرسول القائد الذي غزا قلوب أعدائه بالحب والخوف معا ، وهل يمكنهم في النهاية مخالفة إرادة بطل الحرب الذي يسعى إلى السلام؟!.. وبطل السلام الذي يجعل الحرب سياجا يحمي السلام ؟! .. كلا، لا يمكنهم إلا الاستجابة لرغبته في السلام ، ولكن ما هي شروط السلام ؟! ..

هل خاف عمر من الذهاب بدعوة السلام إلي قريش؟

يقول ابن هشام نقلا عن ابن إسحاق : إن الرسول ﷺ دعا عمر بن الخطاب ﷺ ليبعثه إلي مكة فيبلغ عنه أشراف مكة ما جاء له فقال عمر:

يا رسول الله إني أخاف قريشا علي نفسي ، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها ، وغلظتي عليها ، ولكني أدلك علي رجل أعز بها مني ، عثمان بن عفان ، فدعا رسول الله عثمان بن عفان ، فبعثه إلي أبي سفيان بن حرب ، وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت ، ومعظما لحرمته (ابن هشام جـ٣ ص ٢٠١).

وهذه الرواية لا تصح في رأينا من عدة وجوه:

أولا : ليس هناك من الصحابة من يرفض رغبة لرسول الله ﷺ ، بل كل صحابي يعتبر رغبة رسول الله ﷺ فرضا يجب عليه القيام به .

ثانيا : تذكر رواية أخري لابن هشام : أن الرسول دعا خراش بن أمية الخزاعي فأرسله سفيرا إلى قريش ، وأركبه بعيره فعقرت قريش بعير رسول الله، وكادوا يقتلون خراش لولا أن حمته منهم الأحابيش ، حتى عاد إلى رسول الله ﷺ ، وهذه الرواية أيضا غير صحيحة في نظرنا ؛ لأنّ الرسول ما كان في حاجة إلي إثبات نواياه السليمة بأكثر مما ذكرنا من أمور عملية ، وقد شهد سفراء قريش إلى رسول الله لقريش بأن محمدا ما جاء إلى الحرب بل جاء لزيارة بيت الله الحرام .

وهذا يكفي ، وعلي فرض صحة هذه الرواية ، فما كان عمر بن الخطاب بأقل شجاعة من خراش بن أمية ، وخصوصا أن الرسل لا تقتل ولا

تحبس ، ولو شاءت قريش قتل خراش لقتلته ، ولكن المراد بذلك التهديد فقط، وكسب ود الأحابيش بعد إهانتهم لزعيمهم الحليس ، بتظاهرهم بقبول حمايتهم له .

ثالثا : وعمر بن الخطاب لا يهاب قريشا ، وحينما هاجر ، هاجر على رؤوس أبطال قريش جميعا ، ولم يخف هجرته ، وصاح بهم مهددا- من أراد أن تثكله أمه ، وترمل زوجته ، وييتم ولده فليلقني خلف هذا الوادي - فما جرؤ واحد منهم على الوقوف في وجهه ، أو منعه من الهجرة.

وحينما أسلم عمر كان الفاروق الذي فرق الله به بين عهدين ، فقد كان الإسلام يختفي مع أتباعه في دار الأرقم ، وحينما أسلم عمر خرج المسلمون بناء على رغبته في صفين علي رأس واحد منهما عمر ، وعلى رأس الآخر أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب ، يجهرون بإسلامهم ، ويزلزلون جبال مكة بتكبيراتهم ، وتوحيدهم لربهم ، فما جرؤت قريش على الوقوف في وجه المسلمين وفيهم عمر وحمزة ، ورجل في مثل شجاعة عمر وبطولته وقوة إيمانه ، وثقته في نصر الله ، وحبه لرسول الله ، ولا يخطر ببال عاقل أن يرفض شرفا خلعه عليه رسول الله ، بجعله سفيرا للسلام إلى قريش ، وهذه مكانة يتقاتل عليها الصحابة لشرفها .

وقد رآهم عروة بن مسعود الثقفي يتقاتلون على أيهم يسارع في تنفيذ رغبات رسول الله وأوامره فيما دون ذلك من الأمور.

رابعا : عمر بن الخطاب جندي بطبيعته ، والرسول هو قائده، والجندي لا يناقش قائده في ميدان المعركة ، وهذه معركة سلام ، أخطر من معارك الحرب ، والجندي الشجاع لا يخاف على حياته ، ولا يضن بها لتحقيق النصر للجماعة.

خامسا: ليس عثمان بن عفان بأعز من عمر بمكة ، وإن بقي بنو أمية رهط عثمان بمكة ، ولم يبق بنو عدي رهط عمر، لأن أخوال عمر هم بنو مخزوم ، ومنهم خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبي جهل ، وبنو مخزوم هم قادة العداوة لرسول الله بمكة ، لم يسلم منهم إلا القليل ، وهم المنافس الأول لبني عبد مناف رهط رسول الله ورهط عثمان ، ومن أخواله بنو مخزوم فهو العزيز الجانب المصان الحرمة ، وما كان بنو مخزوم ليتركوا أحدا ينال شعرة من عمر بن الخطاب وهم أخواله .

سادسا : ما كان الرسول ﷺ بالذي يجهل مكانة عثمان بن عفان من أبي سفيان بن حرب زعيم مكة ، فهما من دوحة واحدة ، وابنا عم ، فهما من بني أمية، وكانوا دائما ينافسون بني هاشم ويحقدون عليهم، ويسعون إلى التطاول إلى مكانتهم ، مع أن الأسرتين من بني عبد مناف ، وأقرب الناس رحما إلي بعضهم .

ولم يكن الرسول في حاجة إلى تنبيه عمر له إلى مكانة عثمان في مكة وحب قريش لعثمان لكرمه ، وحيائه ولمسالمته ، ولكن الحق أن الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – وجد أن قريشا قد مالت إلى السلام ، فأراد بإرسالة عثمان وهو من هو من أبي سفيان زعيم مكة ومن بني أمية ومن قلوب قريش، فضلا عن مكانته من رسول الله حيث كان زوجا لابنته أم كلثوم أن يتفق مع قريش علي شروط السلام، وإنهاء حالة الحرب بين الجانبين، وكان واثقا تماما من نجاح عثمان في مهمته.

بيعة الرضوان انتصار عظيم للمسلمين :

ذهب عثمان– رضي الله عنه – إلى زعماء مكة ، وبلغهم رغبة رسول الله ﷺ في عقد معاهدة سلام بين المسلمين وقريش تصان فيها الدماء ،

وتحفظ بها حرية العقيدة ، وتصان الأموال وتتاح بها الفرصة لصلة الأرحام وإحياء الصداقات القديمة ، ويرتفع بها صوت العقل ، وتخمد أنفاس العصبية وأتباع باطل الآباء والأجداد، وينعم في ظل تلك المعاهدة أهل الجزيرة العربية بالإسلام، وتفتح بها القلوب لنور الإسلام ، وتتاح بها الفرصة للحوار الديني بين المسلمين وغيرهم من المشركين لتكون كلمة الحق هي العليا ، وتصرع كلمة الباطل بسهام الفكر السديد ، وتعترف بها قريش في حق المسلمين في زيارة البيت الحرام .

تلك كانت في الحقيقة هي مهمة عثمان بن عفان – رضي الله عنه– التي أرسله الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – من أجلها، وليس من أجل إخبار قريش فقط بأن الرسول ما جاء للحرب والقتال ، بل لزيارة البيت الحرام، كما ذهب إلى ذلك كل كتاب السيرة من القدماء وتابعهم جميع المحدثين.

لأن حقيقة مجيء الرسول القائد لزيارة البيت الحرام هو والمسلمون أثبتها الرسول بالأدلة العملية التي ذكرتها سابقا.

وأيقن بها كل سفراء قريش إلى رسول الله ، فكان من العبث ولغو الفعل إرسال عثمان لإثبات ذلك ، وحاشى للرسول أن يكون عابثا أو يتبع لغو الأفعال أو الأقوال .

وما كان احتباس قريش لعثمان – رضي الله عنه – إلا من أجل التدبر في شروط المعاهدة ، التي أصبحت لهم طوق الإنقاذ أمام العرب ، وأمام زحف الإسلام المنتصر بالقوتين المعنوية والعسكرية معا ، فكانوا يريدون أن يكون انتصار الإسلام عليهم انتصارا معنويا لا انتصارا عسكريا ينال من مكانتهم وكبريائهم أمام قبائل العرب ، ولهذا رجوا عثمان البقاء بعض الوقت

لتدبر أمرهم ، ولم يكن احتباس قريش لعثمان بن عفان إكراها له على البقاء في مكة رغما عنه كأسير في أيديهم ، كما ظن ذلك كل كتاب السيرة القدامى والمحدثين.

أولا : لأنه رسول ، والرسول لا يقبض عليه.

ثانيا : لأن زعيم مكة وهو أبو سفيان بن حرب هو ابن عمه ، ومكانة بني أمية في مكة وصلة القربى ، تحول بين قريش وحبس عثمان رغما عنه.

ثالثا : ما روته سيرة ابن إسحاق وتابعه ابن هشام من أن أبان بن سعيد الأموي قد أجار عثمان عند دخوله مكة. وقبل لقاء زعمائها. يحول بين قريش وبين نقض أجارة أبان وهو سيد من سادات قريش ، إن صحت تلك الرواية.

رابعا : لو كانت قريش قد قبضت علي عثمان كأسير حرب لما أطلقت سراحه قبل الاتفاق بينها وبين المسلمين ، ولساومت به المسلمين ، ولم يحدث ذلك ، بل جاء عثمان إلى رسول الله قبل الاتفاق بين المسلمين وقريش ، وهذا دليل قاطع على بطلان احتباس قريش لعثمان عندها رغما عنه .

بل أبقته عندها باختياره لحمل شروطها للسلام ، ورحب عثمان بذلك . ليتحقق السلام على يديه بين المسلمين وقريش.

خامسا : ويدل على ذلك أيضا ، أن قريشا عرضت على عثمان الطواف بالبيت الحرام ، كما روي أبن أسحاق وابن هشام ولكن عثمان رفض ذلك قائلا:

ما كنت لأطوف بالبيت قبل أن يطوف به رسول الله ﷺ فما كانت قريش لتعرض عليه هذا العرض ثم يحبسونه عندهم رغما عنه.

وأثبت رد عثمان بن عفان – رضي الله عنه – مدى محبة الصحابة للرسول – صلوات الله وسلامه عليه – وأعزازهم له أكبارهم لمكانته ، وعدم التقدم عليه في أمور الخير ، وبذل نفوسهم بين يديه في مواطن الهول والخطر.

❋ ❋ ❋ ❋

بيعة الرضوان انتصار للإسلام وللمسلمين :

أرادت قريش اختبار قوة المسلمين علي الحرب داخل مكة ، وقد أيقنت أنهم ما جاءوا للحرب والقتال بل للسلام وزيارة البيت الحرام.

وقد غرتها قلة المسلمين ، فلم يحشد لهم الرسول القائد كل قواته الضاربة ، بل جاء معه فقط بست عشرة مائة من جنوده الأبطال ، وهو الذي حشد لهم في غزوة الأحزاب في العام الخامس من الهجرة ثلاثين مائة من المقاتلين .

وذلك لأن تلك هي الفرصة الأخيرة لقريش للقضاء علي الرسول والإسلام والمسلمين ، وهم في هذا العدد القليل ، ولم يأت بهم رسول الله بنية الحرب والقتال ، فأطلقت قريش إشاعة قتل عثمان بن عفان لترى رد فعل المسلمين.

فإن صمموا علي القتال تيقنت من قوتهم ، وعقدت معهم معاهدة السلام.

وإن استسلموا لهذا العمل الدنيء ، سمحت لهم بدخول مكة ثم قضت عليهم في داخلها غدرا وخيانة .

لست أشك مطلقا في صحة هذا الرأي الذي ذهبت إليه والذي لم يذهب إليه أحد مطلقا من القدامي والمحدثين من كتاب السيرة ، والمفكرين المسلمين وغيرهم ، على الرغم من وضوحه كل الوضوح ، وظهوره كل الظهور.

فابن أسحاق وابن هشام يقولون : وقد بلغ رسول الله والمسلمين قتال عثمان! .. فمن الذي بلغ الرسول والمسلمين لك غير قريش ؟! .. وما هدفها من تلك الإشاعة ؟ ..

أليس العقل والمنطق والفكر السديد يقول بأهداف قريش من تلك الإشاعة هو ما ذكرت؟ .. .

وحينما سمع الرسول بتلك الإشاعة ، قال في حزم وتصميم القائد الواثق من نصر الله له ، والذي يسعى إلى السلام من موقع القوة :

(لن نبرح حتي نناجز القوم) أي لن نترك هذا المكان حتى نقاتل قريشا لغدرها بعثمان وقتله .

ثم دعا رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - إلى مبايعة المسلمين له علي النصر أو الاستشهاد في سبيل الله ، فبايعه المسلمون جميعا على ذلك في شجاعة كاملة ، واشتياق إلى الاستشهاد في سبيل الله ، تحت شجرة الرضوان ، ولم يتخلف عن بيعة الرسول إلا منافق عد بين صفوف المسلمين وليس منهم وهو الجد بن قيس ، الذي اختبأ لجبنه تحت بطن ناقته حتى لا يراه الرسول فيطلب منه البيعة .

وضرب الرسول بإحدى يديه علي الأخرى مبايعا عن عثمان ، وكان أول من بايع رسول الله هو أبو بكر الصديق ، وليس كما زعم ابن هشام أن أول من بايع رسول الله هو أبو سنان الأسدي ؛ لأن الأول لن يكون سوى الصاحب الأول ، لرسول الله ، والذي لو وزن إيمانه بإيمان الأمة الإسلامية لرجع إيمانه في الميزان كما قال رسول الله ، وهو أبو بكر الصديق - رضي الله عنه- .

وحينما علمت قريش ، بهذه المبايعة علي النصر أو الموت ، ورأت قوة المسلمين الكاسحة ، أمرت عثمان - رضي الله عنه- بالإسراع إلي رسول الله لإطفاء نيران غضبه عليها ، ولإثبات كذب تلك الإشاعة التي أطلقتها هي ولتبشيره بمجيء سهيل بن عمرو في أثره حاملا شروط قريش وموافقتها

على عقد معاهدة السلام بينها وبين المسلمين.

ولا شك في أن هذه المبايعة علي النصر أو الموت ، دلت علي أعظم انتصار للإسلام والمسلمين في هذا الموقف العصيب ، فنزل قول الله تعالى :

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (١٩/١٨: الفتح)

لقد رضي الله – سبحانه وتعالى – عن المؤمنين بتلك المبايعة ووعدهم بالفتح القريب ، والنصر والغنائم العظيمة.

ونزل قول الله – تعالى – أيضا مبينا مكانة الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – فقال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١٠ : الفتح)

فكرم الله – تعالى – رسوله بجعل يده بمنزلة يد الله ، وبشر الأوفياء بعهدهم بدخولهم الجنة .

لقد كانت تلك المبايعة كما قلت ، هزيمة لقريش ؛ لأنها أيقنت بقوة المسلمين رغم قلة عددهم ، مما دفعها إلى عقد معاهدة السلام ، قال تعالى مشيرا لانتصار المسلمين بهذه المبايعة على قريش ، قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (١٨ : الفتح).

والفتح القريب هو معاهدة السلام التي وقعتها قريش مع رسول الله صاغرة بعد أن رأت قوة المسلمين بالمبايعة على الموت في سبيل الله والإسلام ، وفي هذه المعاهدة تعترف قريش لأول مرة بالإسلام .

ويدل دلالة قاطعة علي صحة ما ذهبت إليه من أن قريشا أطلقت إشاعة قتل عثمان ، لترى رد فعل المسلمين ، وتحاربهم وتعذبهم وتقضي عليهم لو رأت منهم استبلاما وضعفا ، وتسالمهم إذا رأت منهم عزيمة ماضية علــى القتال وتبين لها قوتهم.

يدل على ذلك دلالة قاطعة قول الله تعالى في سورة الفتح ، قال تعالى :

﴿ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (٢٢ : الفتح).

أي لو غدروا بكم وقاتلوكم بعد إطلاقهم إشاعة قتل عثمان ، لهزموا شر هزيمة ، وما وجدوا لهم معينا علي المسلمين ولا نصرا عليهم .

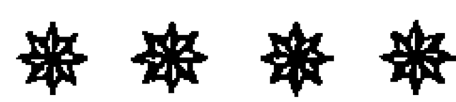
ويدل أيضا علي أن هذه المبايعة كانت هزيمة معنوية لقريش قــوله تعالي :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾(٢٤: الفتح)

(بطن مكة) المراد به الحديبية لقربها من مكة.

و(أظفركم عليهم) ببيعة الرضوان ، التي أدت إلى اعترافهم بالإسلام والمسلمين والرسول بصلح الحديبية ، حتى ولو كابرت قريش علــى لــسان ممثلها سهيل بن عمرو برفض ذكر محمد رسول الله في صحيفة المعاهــدة . فالتوقيع معه علي المعاهدة هو اعتراف ملزم برسالته قانونيا ، وعرفيا ، وأن لم يكن اعترافا دينيا.

وليس المراد بهذا الظفر هو سقوط خمسين فارسا من قــريش بأيــدي المسلمين وإطلاق الرسول لسراحهم كما ذهب المفسرون.



معاهدة الحديبية انتصار باهر للإسلام وللرسول وللمسلمين

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر بن لؤي إلى رسـول الله – صلوات الله وسلامه عليه –.

وقالت له قريش : ائت محمدا فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامة هـذا ، فـوالله لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا.

وهذا يدل تماما علي أن قريشا قد انهزمت معنويا بعد صلح الحديبيـة الذي عبر الله ، في سورة الفتح بأنه الفتح القريب ، فلقد رضيت قريش بصلح مع رسول الله ولم يشترطوا سوى شرط واحد هو رجوعه عنهم هذا العـام. حفظا لماء وجوههم أمام العرب .

أما الشرط التي اشترطها مندوبهم سهيل بن عمرو علي المسلمين فقـد كانت بمبادرة خاصة منه ، حينما رأى تـسامح رسـول الله – صـلوات الله وسلامه معه – في شروط الصلح.

فراسة رسول الله في الرجال :

حينما رأى رسول الله سهيل بن عمرو قادما ، قال في فراسـة مذهلـة بمعرفة خفايا البشر من مظهرهم الخارجي : (قد أراد القوم الـصلح حـين بعثوا هذا الرجل)

❋ ❋ ❋ ❋

شروط الصلح بين المسلمين وقريش

أولا : وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض.

ثانيا : من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه ، رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد ، لم يردوه عليه .

ثالثا : طي الحقد في الصدور وعدم التصريح به .

رابعا : ألا يحاول أحد الأطراف المتعاقدة سرقة أموال الآخر وقوافل تجارته خفية بالتعاون مع الآخرين من خلف الستار.

خامسا : عدم خيانة أحد الطرفين المتعاقدين للطرف الآخر ، أو لحلفائه بالتالي ؛ لأن تابع الأصيل كالأصيل في كل الأحكام.

سادسا : من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، أي يصير حليفا له ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل فيه أي يصير حليفها لها.

سابعا : أن يرجع الرسول والمسلمون عن زيارة البيت الحرام وأداء العمرة هذا العام ، وإذا كان العام القادم ، خرجت قريش من مكة ، ودخل محمد وأصحابه ، علي أن لا يقيم بها هو وأصحابه أكثر من ثلاثة أيام ، وأن لا يدخل مكة بالأسلحة الهجومية كالسهام والحراب ، بل يدخلها هو وأصحابه السلاح الدفاعي ، وهو سلاح الراكب ، السيوف في أجربتها.

وشهد علي المعاهدة :

١- أبو بكر الصديق.

٢- عمر بن الخطاب.

٣- عبد الرحمن بن عوف.

٤- وعبد الله بن سهيل بن عمرو.

٥- وسعد بن أبي وقاص.

٦- ومحمود ابن مسلمة.

٧- ومكرز بن حفص وهو يومئذ مشرك.

٨- علي بن أبي طالب ، وهو كاتب صحيفة المعاهدة.

الآثار التي ترتبت علي صلح الحديبية

أولا : بناء على الشرط السادس من معاهدة الصلح ، دخلت قبيلة خزاعة في تحالف مع المسلمين مع رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - ومع المسلمين.

ودخلت قبيلة بني بكر في تحالف مع قريش.

ثانيا : أثار الشرط الثاني من نصوص المعاهدة غضب المسلمين. وعلي الأخص الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- الذي أسرع إلى أبي بكر الصديق متسائلا في دهشة وذهول : أو ليس برسول الله ؟ قال بلى . قالى: أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال أو ليسوا بالمشركين ؟ قال بلى. قال عمر : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟! ..

قال أبو بكر - رضي الله عنه - في ثقة وحسم ويقين : يا عمر الزم أمره فإني أشهد أنه رسول الله ، فقال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله ، فلله در الصديق أقوى أمة محمد إيمانا ، فلقد ألقى درسا منيرا على الفاروق - رضي الله عنه- موجها عقله وقلبه ، بأن ما يراه الرسول بنور النبوة الكاشف للخفايا ، لا يراه الخلق جميعا بعقولهم القاصرة ، والنبي لا يعارض بل يجب على المؤمنين التسليم لأمره ، فإنه أرحم بهم من أنفسهم ، وأولى

بهم منها ، كما قال تعالى : {ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ} (٦ : الأحزاب)

وذهب عمر يسأل رسول الله هذه الأسئلة التي سألها أبا بكر فأجابه الأجوبة نفسها ، قائلا له :

أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني.

فقال عمر فيما بعد : مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق ، من الذي صنعت يومئذ ، مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حتي رجوت أن يكون خيرا.

ثالثا : حينما خرج أصحاب رسول الله معه ، كانوا لا يشكون في زيارة البيت الحرام ، وأداء العمرة لرؤيا رآها رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – ورؤيا الأنبياء حق.

فلما رأوا الرجوع عن العمرة هذا العام ، وشروط المعاهدة المجحفة بالمسلمين ، كادوا يفتنون في دينهم ، وأوشكوا على الهلاك ؛ لأنهم نظروا بعقولهم القاصرة ، ونسوا نور النبوة الكاشف ، وتأييد الله القاهر العليم بكل شيء لخطوات رسوله رحمة العالمين.

رابعا : وزادت آلام المسلمين ، حينما شاهدوا أبا جندل بن سهيل بن عمرو، يرده الرسول إلى أبيه وإلى المشركين وهو يصرخ قائلا : يا معشر المسلمين الرد إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟! .. فقال له الرسول الأعظم – صلوات الله وسلامه عليه – في رحمة وثقة :

يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم ، وكان أبو جندل قد

قدم علي رسول الله هاربا من مكة بقيوده ، والمعاهدة مازالت تكتب لم يفرغ من كتابتها بعد ، فقام أبوه سهيل بن عمرو يضرب في وجهه ، وأخذ بمجمع ثيابه ، ثم قال :

يا محمد قد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال الرسول الأمين الحريص على الإسلام العادل : صدقت ، ولو كان سياسيا من ساسة عصرنا هذا ، لقال : كلا . فإن المعاهدة لم تصبح قانونية بعد ، لعدم تصديق الطرفين عليها ، ولكنه رسول الله العادل الأمين ، ورحمة الله إلى العالمين.

خامسا : أظهرت للعرب عامة ولقريش خاصة مدى حب رسول الله للسلام ، وسعيه إليه ، حينما بدأ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه كتابة نصوص المعاهدة كتب في بدايتها بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل بن عمرو ، لا نعرف الرحمن الرحيم اكتب باسمك اللهم ، فقال رسول الله لعلي اكتب باسمك اللهم ، وحينما كتب عليٌّ ، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ، اعترض سهيل بن عمرو قائلا لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، اكتب اسمك واسم أباك ، فقال الرسول لعلي ، اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، فلم يستطع علي كرم الله وجهه محو اسم رسول الله من الصحيفة ، إجلالا لاسم الله ، وتكريما لرسوله ، فتناول الرسول الصحيفة وأزال- رسول الله - حرصا على السلام ، وسعيا إليه ، وحقنا للدماء ؛ لأن الله تعالى هو السلام ، والإسلام هو دين السلام ، وتحية المسلمين السلام. وفي سبيل السلام تهون اعتراضات قريش المتعنتة .

سادسا : سارع الرسول القائد - صلوات الله وسلامه عليه- بعد إبرام الصلح ، بالتحلل من عمرته ، وذبح هديه ، وكذلك فعل المسلمون ، ثم أخذ في العودة إلى المدينة.

سابعا : وفي الطريق إلى المدينة ، نزلت سورة الفتح ، وقد أثلجت تلك

السورة الكريمة ، صدر رسول الله وصدور المسلمين ، ووصف الله – تعالى– هذه المعاهدة بالفتح المبين ، فقال تعالى :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾(١/٣ : الفتح) .

وبشر الله – سبحانه وتعالي – رسوله : بالمغفرة وإتمام النعمة والهداية إلي الطريق المستقيم ، والنصر العزيز ، وهو فتح مكة وانهيار كل معاقل الشرك في الجزيرة العربية.

ثامنا : كانت معاهدة الصلح حقا كما قال العليم بكل شيء فتحا ظاهرا مبينا ، فقد ترتب عليها ، أن أمن الناس بعضهم بعضا ، وتقابلوا في سلام واطمئنان ، وعرض المسلمون دينهم العظيم الباهر الضياء علي المشركين فدخل في الإسلام كل من له عقل سليم وفؤاد مبصر ، ودخل في خلال عامين في الاسم أكثر مما دخلوا طوال التسعة عشر عاما السابقة من تاريخ الدعوة الإسلامية ، وهذا هو الفتح المبين حقا.

تاسعا : أثبتت الأحداث حكمة الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – وبعد نظره ، وأنه يرى بنوره النبوة الكاشف لخفايا الأحداث.

فقد كان البند الثاني من بنود المعاهدة : وهو رد من جاء من قريش مسلما من غير إذن وليه إلى قريش ، وعدم رد قريش من ارتد من دينه من المسلمين ولجأ إلى قريش إلى رسول الله ، كان هذا البند هو أشد بنود المعاهدة غيظا للمسلمين ، ومع هذا فقد كانت قريش هي التي طلبت من رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – أن يلغيه ، ولا يرجع إليهم من جاءه مسلما بغير إذن وليه والذي دفع قريش إلى ذلك هو البطل العظيم أبو

بصير عتبة بن أسيد – رضي الله عنه – وأصحابه الأبطال. فقد جاء أبو بصير مسلما إلى رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – بغير إذن وليه . وكان ممن حبسته قريش بمكة من المسلمين ، فأرسلت قريش رجلين إلى رسول الله لرده إليهم حسب شروط المعاهدة ، فقال الرسول :

يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا فانطلق إلي قومك.

قال : يا رسول الله أتردني إلي المشركين يفتنوني في ديني؟

قال الرسول : يا أبا بصير انطلق فإن الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، وما أسرع ما تحقق الفرج وجاء المخرج فقد ذهب أبو بصير مع الرجلين عائدا إلى مكة ، حتى إذا كانوا بذي الحليفة بالقرب من المدينة جلس إلى حائط ومعه صاحباه ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : أصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر ؟ فقال العامري : نعم ، فقال : أبو بصير : دعني أنظر إليه ؟ قال العامري : هاك فانظر إليه.

فاستله أبو بصير كصاعقة ماحقة ، وهوي به على العامري فأورده موارد الفناء .

وهرب الرجل الثاني : حتى دخل علي رسول الله وهو في غاية الفزع والرعب ، وأبو بصير يطارده ، فلما رآه رسول الله وهو جالس كالبدر وسط أبطال المسلمين ، قال : إن هذا الرجل قد رأى فزعا.

فلما انتهى إليه الرجل ، قال له الرسول – صلوات الله وسلامه عليه –

مالك ؟ فقال الرجل وقد جف ريقه من الخوف :

قتل صاحبكم صاحبي ، ولم يكد يفرغ من قوله حتى طلع البطل أبو بصير متوشحا بالسيف فلما وقف أمام رسول الله قال :

يا رسول الله وفت ذمتك ، وأدى الله عنك ، أسلمتني بيد القوم ، وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه ، أو يعبث بي.

فقال الرسول الأعظم : – مثنيا على ذكائه وشجاعته وموجها له – ويل أمه مسعر حر لو معه رجال .

فخرج أبو بصير حتى نزل علي ساحل البحر الأحمر بمكان يسمى العيص ، وبلغ المستضعفين في مكة من المسلمين ما قاله الرسول القائد في مدح أبى بصير ، وتمنيه لو كان معه رجال شجعان مثله ، فخرج إليه نحو سبعين من مسلمي مكة الذين حبستهم قريش عن الهجرة إلى المدينة – وكون البطل الصنديد أبو بصير منهم كتيبة قتال فدائية ، قطعت طريق تجارة قريش إلى الشام ، فكان كل من وقع من قريش بأيديهم قتلوه ، وكل قافلة تمر بهم يستولون عليها ، فضجت قريش ، وأرسلت إلى رسول الله تناشده القرابة والرحم ، أن يضم إليه هؤلاء المسلمين ، فلا حاجة بقريش إلى ردهم إليها. وأرسل الرسول القائد إلى البطل العظيم رسالة يطالبه فيها بالعودة إلي المدينة مع أصحابه ، وكانت تلك هي اللحظة الرائعة التي يحلم بها البطل أبو بصير. ليكون بجوار نور الله إلى العالمين محمد بطل الحرب والسلام ، ولكن كان الله تعالى يريده بجواره ، فقد جاءه ملك الموت بريحان الجنة ، وشذاها العذب الأريج ، ووقف مع فرقة من الملائكة الكرام معهم الحرير الأخضر كالربيع الضاحك في الحقول بروحه الطاهرة ونفسه المضيئة بأنوار الإيمان إلى عرش الرحمن بأنواره التي لا يدرك روعتها العقل أو الخيال ، وقبل البطل المجاهد رسالة رسول الله كأنما يقبل قائده الأعظم صاحب الرائحة

الذكية ، والطلعة البهية وفاضت عينا البطل بالدمعة المتساقطة كحبات اللؤلؤ البيضاء ، وأمر أصحابه بالعودة إلى رسول الله ، وتبليغه سلامه إليه.

وفاضت روحه الطاهرة ونفسه العاطرة ، وصعدت الملائكة الكرام إلى ربهم بروح البطل العظيم ونفسه ، وأندمجت أنوار الروح والنفس في أنوار العرش ، وبلغ أصحابه سلام الوداع إلى الرسول بالدموع ، ورد سلامه. وترحم عليه وأثنى علي بطولته وشجاعته ، وأنهار أخطر بنود المعاهدة بسيف البطل وسيوف أصحابه الأبطال ، ورضي المسلمون ، وعمهم البشر. وفاضت عيناه بالدموع فقد كان ﷺ متلهفا على رؤيته ، وأدركوا وعلى رأسهم الفاروق عمر أن ما يراه رسول الله هو الصواب ، وأن الله مع رسوله في كل أموره ، ومن كان الله معه لا يخيب.

٢٥- غزوة خيبر :

كانت هذه الغزوة العظيمة في شهر المحرم من العام السابع من الهجرة عقب معاهدة الحديبية ، وأستخلف فيها رسول الله- صلوات الله وسلامه عليه - علي المدينة الصحابي الجليل : نميلة بن عبد الله الليثي -رضي الله عنه-.

وحمل فيها راية رسول الله البيضاء، البطل الغالب الأمام علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه-.

(القرآن الكريم يخبر رسول الله بما سيقوله له الذين تخلفوا عن الخروج معه إلي مكة من الأعراب ، قبل قدومه إلي المدينة).

القرآن العظيم كلام الله رب العالمين الخالد الذي لا ينطق إلا بالحق هو معجزة الرسول والإسلام الكبرى ومن إعجاز القرآن الباهر الضياء أخباره رسول الله القائد بما سيقوله له الذين تخلفوا عن الخروج معه إلى مكة من

انشغالهم بالأموال والأهل عن الخروج معه وطلبهم منه الاستغفار لهم مع أن قلوبهم خالية من الندم خاوية من نور الإيمان وقد أمر الله تعالي رسوله بعدم الاستغفار لهم ؛ لأن الله تعالى خبير بأعمالهم وما في قلوبهم .

قال تعالى :

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾ (١١ : الفتح)

وأظهر القرآن العظيم نور الله في الأرض ما خفي من ظنونهم الشريرة السيئة وهو ظنهم بأن قريشا سوف تبيد رسول الله القائد وكل جيشه معه في داخل مكة ، ولن يعود أحد من جيش رسول الله إلى أهله في المدينة أبدا ، وقد أخلف الله ظنونهم الشريرة.

وعاد الرسول القائد يحيط به النصر والفوز، وقد هلك الأعراب الذين تخلفوا بالمعصية ، وعدم استغفار الرسول لهم ، وهددهم الله تعالى بنار السعير إذا استمروا على عدم إيمانهم بالله ورسوله بقلوبهم وتظاهروا بالإيمان فقط بألسنتهم شأن المنافقين الكفار ؛ لأن الله تعالى هو الذي يملك السموات والأرض وحده لا شريك معه فيغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء وهو الكثير الغفران والرحمة لعباده.

قال تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ

وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾(١٢/١٤: الفتح)

وقد أخبر الله تعالى رسوله القائد في كتابه العزيز يطلب الذين يخلفوا من الأعراب من الخروج معه إلى خيبر ، وطلب منه عدم الاستجابة لطلبهم إن الله تعالى بشر أهل بيعة الرضوان وحدهم بفتح خيبر وحصولهم على غنائمها وحدهم.

فقال تعالى : {سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا }(١٥: الفتح) .

وطلب الله تعالى من رسوله رحمة العالمين محمد – صلوات الله وسلامه عليه – أن يفتح باب التوبة والجهاد أمام الذين رفض خروجهم معه إلى خيبر من الأعراب ، بأنهم سيدعون في المستقبل في خلافة أبي بكر الصديق – رضي الله عنه– لمقاتلة قوم أصحاب بأس شديد لإعادتهم إلى الإسلام بعد ارتدادهم عنه ، وهم العرب الذين تبعوا مسيلمة الكذاب من بني حنيفة باليمامة ، وطليحة ابن خويلد الأسدى ، وهم بنو أسد وغطفان.

فإن استجابوا للجهاد في سبيل الله وقاتلوا هؤلاء العرب الأقوياء حتى يعيدوهم إلى الإسلام ، غفر الله لهم تخلفهم عن الخروج إلي مكة مع رسول الله ، وأعطاهم الله الأجر الحسن من غنائم الدنيا وثواب الآخرة ، وإن تخلفوا عن الخروج لقتال المرتدين ، كما تخلفوا من قبل عن الخروج إلى مكة مع رسول الله كان لهم العذاب الأليم من الله تعالى ، قال تعالى :

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا

وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١٦ : الفتح)

أبطال بيعة الرضوان والحديبية يسيرون لفتح خيبر

تحرك الرسول القائد مع أبطال جيشه أهل بيعة الرضوان والحديبية وهم الألف والستمائة نحو مدينة خيبر الحصينة القوية الغنية ، كبرى مدن اليهود في الجزيرة العربية ، والتي تحتوي على أقوى قبائلهم فيها ، والتي تنطلق من داخلها نيران الحق علي المسلمين والإسلام ورسول الإسلام ، وتندفع منها المؤامرات ضد الإسلام والمسلمين ورسول الإسلام ، ويأوي إليها كل يهودي يكتوي قلبه بنار العداء للإسلام سار الجيش إلى الشمال من المدينة وعامر بن الأكوع عم البطل العظيم سلمة بن عمرو بن الأكوع ينشد بصوت رائع :

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

أنا إذا قوم بغوا علينا ... وأن أرادوا فتنة أبينا

فانزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام أن لاقينا

فأخذت الإبل تسير علي هذا الحداء بنشاط وعنفوان ، لأنها ذات أذن موسيقية تطرب لأنغام الأشعار ، والحداء ، وتنس ما تحمل فوق ظهورها من أثقال ، وما هي عليه من جوع وعطش ، وأخذ جنود الجيش ، يرددون الشعر خلف عامر بن الأكوع وهم يهتزون على ظهور الإبل في تناغم إلى الأمام وإلى الخلف.

الرسول يخبر عامر بن الأكوع باستشهاده في خيبر

وقال الرسول القائد لعامر بن الأكوع شاعر الجيش ، مبشرا له بالاستشهاد في خيبر : (يرحمك الله يا عامر).

ففهم الفاروق البشارة ، وأدرك المعجزة قبل وقوعها ، فقال لرسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - : (وجبت الشهادة لعامر يا رسول الله في خيبر ؛ لأنك دعوت الله له بالرحمة ، فلو أمتعتنا ببقائه معنا ، والاستمتاع بأشعاره وصوته الرائع المؤثر).

فأستشهد يوم خيبر ، وقبل الله دعوة رسوله فيه ، وتحققت بشارة الرسول له ، وظهر للعيان ذكاء الفاروق عمر وإلهامه .

الرسول القائد يحاصر خيبر ليلا

نزل الرسول القائد بجيشه الشجاع على خيبر ليلا ، ولم يأمر الجيش بالهجوم حتى يسفر النهار، ويتأكد من أن القوم باقون على شركهم ولم يعلنوا إسلامهم ، ولم يسمع الأذان بالصلاة فوق حصونهم.

فلما كان الصباح ، وسكبت الشمس ذهبها الوهاج على الروابي والبطاح ولم يسمع أذان عند سفور الفجر ، ركب الرسول وركب جنوده لمهاجمة خيبر ، وحينما خرج عمال خيبر من أبواب المدينة للتوجه إلى حقولهم . وبساتينهم ، وشاهدوا القائد مع جيشه العظيم ، رموا مجارف الحديد والمكاتل الخوص من أيديهم وأسرعوا عائدين إلى المدينة في خوف وفزع وهم يصرخون قائلين : محمد والجيش معه.

فقال رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - : ردا عليهم.

الله أكبر. خربت خيبر .

قبائل غطفان تريد مناصرة اليهود

ولكن الله القوي يلقي الرعب في قلوبهم ، فيعودون إلى ديارهم

حينما سار الرسول القائد بجيشه الشجاع إلي خيبر، مرَّ على مكان يسمى عصر ، فبني له في هذا المكان مسجدا ، ثم أقبل بجيشه فنزل في وادي الرجيع ، ليحول بين غطفان وبين مساعدة يهود خيبر ، حيث كان هذا الوادي بين غطفان وخيبر ، وكان طريقهم إلى خيبر لابد أن يمر عليه ، وهذه خطة رائعة للرسول القائد – صلوات الله وسلامه عليه – حيث حال بين غطفان وحلفائهم اليهود .

وحينما علمت غطفان بخروج الرسول القائد لفتح خيبر، خرجت بكل قواها للمحاربة مع اليهود ولكنهم حينما ساروا مرحلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم صوتا غريبا يدل علي أصوات هجوم وصهيل وقعقعة سيوف وصراخ ، واستغاثة ؛ فعادوا مسرعين إلى ديارهم ، وقد ظنوا أن المسلمين قد هاجموا ديارهم من خلف ظهورهم.

ولكن الله القوي العزيز. الذي نصر عبده ، وأعز جنده ، هو الذي ألقى الرعب في قلوب غطفان ، وخيل لها سماع هذه الأصوات ، حتى لا تساعد اليهود ، وتترك خيبر لقدرها ، وقد كان ، فقد أقامت غطفان في دياره وأموالها ، وتركت خيبر لمصيرها.

البطال الغالب علي بن أبي طالب يفتتح حصون خيبر

تحصن اليهود كالجرذان في حصونهم ، حينما علموا بمحاصرة الرسول وجيشه ، فأخبر الرسول القائد مجلس حربه في المساء قائلا :

(لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله يفتح الله على يديه حصون خيبر).

وبات المسلمون في قلق ، وترقب ، واشتياق لمعرفة من هو هذا البطل العظيم ، الذي يحبه الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله ، والذي سيكون النصر العزيز على يديه ! ..

هل هو أبو بكر ؟ هل هو عمر؟ هل هو سعد بن أبي وقاص؟ هل هو الزبير بن العوام ؟ هل هو طلحة بن عبيد الله؟

وتمني الفاروق عمر أن يكون صاحب الراية غدا ، وكذلك كل بطل من أبطال المسلمين تمنى ذلك ، وأصبح الصباح ، صاح الرسول القائد :

أين علي بن أبي طالب ؟

هو رَمِدٌ يشتكي عينيه يا رسول الله.

أريده الآن.

وجاء البطل على فتفل رسول الله في عينيه ودعا له الله بالشفاء ، فبرئت عيناه في الحال معجزة لرسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – وسط إعجاب المسلمين ودهشتهم.

أعطي الرسول القائد لعلي راية الحرب قائلا له :

يا علي سر إلي اليهود علي رسلك – علي مهلك – ولا تبدأهم بالحرب حتي تدعوهم إلي الإسلام ، فإن أسلموا فكف يدك عنهم ، ولأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم – الإبل الحمراء – وكانت الإبل الحمراء هي أحب أموال العرب إليهم ، وأعلاها عندهم ، وقال علي البطل الغالب : سمعا وطاعة لك يا رسول الله.

وسار بالجيش من وادي الرجيع حيث عسكر المسلمون ، لأخذ الطريق علي غطفان ، سار بالجيش متمهلا ، يحمل راية رسول الله في محبة واستبشار بالنصر ، وحينما اقترب من حصون اليهود ، صاح بهم :

يا معشر اليهود إني أدعوكم إلي الإسلام ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن

محمدا رسول الله ، لتكونوا إخواننا في الدين ، لكم مالنا وعليكم ما علينا.

قالوا : لا حاجة لنا في دين الكذاب محمد ، ونحن أبطال الحرب والقتال. وانهالت الأحجار والسهام على جنود المسلمين من أول حصونهم حصن ناعم وسقط حجر على الشهيد محمود بن مسلمة فاستشهد - رضي الله عنه- فاندفع البطل الغالب علي بن أبي طالب فخلع بابا حديديا ضخما من أبواب الحصن ، ورفعه كترس بيده واحدة ، وهذا الباب لا يستطيع تحريكه عشرة من الرجال الأشداء الأقوياء ، ولكن البطل الغالب عليٌ أعطاه الله قوة خارقة وبطولة فذة وشجاعة كاسحة لا يقف أمامها أعظم الأبطال حتى البطل العظيم خالد بن الوليد ، فرَّ من أمامه في غزوة الخندق ، هو وعكرمة بن أبي جهل ، حينما قفزا بجواديهما فوق الخندق ، مع ثلة من فرسان المشركين فتصدى لهم البطل الغالب علي بن أبي طالب مع بعض فرسان المسلمين. فقتل بعضهم ، وفرَّ الباقون من أمام سيفه البتار.

هل يستطيع البطل علي فتح حصون خيبر

وقد عجز عن فتحها أبو بكر الصديق والفاروق عمر

قبل قدوم البطل علي كرم الله وجهه لحصون خيبر ، أعطى الرسول القائد رايته البيضاء لأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - لفتح حصون خيبر. فلم يستطع فتحها ، ثم أعطاها في ثاني يوم للفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- فما استطاع هو الآخر فتحها ، فهل تقف هذه الحصون الشامخة في السماء بقلوبها السخرية ، وأبوابها الحديدية ، أمام هجوم البطل ابن أبي طالب ؟

وهو البطل الغالب الذي لم يقف أمامه محارب ؟ ...

لقد بشره رسول الله بفتح خيب علي يديه. ورسول الله لا ينطق عن

الهوى ، وكلامه حق وصدق ، وها هو يهودي من أحبار اليهود وعلمائهم . يقف فوق رأس حصن ناعم ، ثم يصيح بعلي كرم الله وجهه.

- من أنت أيها المقاتل الشديد ؟

- أنا علي بن أبي طالب.

-علوتم علينا يا معشر المسلمين بحق التوراة التي أنزلها الله على موسى ، فكبر البطل علي- كرم الله وجهه- وكبر المسلمون استبشارا بالنصر فهزت تكبيراتهم خيبر، وزلزلت حصونها الشاهقة في السماء ، المتينة البنيان بما تحتوي عليه من صخور الصوان .

وعلت أصوات المسلمين الأبطال تدعو الله القوي في السماء بالنصر أو الاستشهاد فكان شعارهم في هذا اليوم العظيم (يا منصور. أمت . أمت)

الرسول يدعو علي خيبر قبل هجوم علي عليها

حينما أشرف الرسول القائد على حصون خيبر، دعا بهذا الدعاء : (اللهم رب السموات وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن ورب الشياطين وما أظللن ورب الرياح وما أذرين فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها أقدموا باسم الله).

وكان هذا الدعاء المنير يدعو به الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - عند كل قرية دخلها.

الرسول ينهى المسلمين عن بعض المحرمات

كانت قدور المسلمين تفور بلحوم الحمر الأهلية ، حينما نادى منادى رسول الله : إلا أن رسول الله قد حرم عليكم أكل لحوم الحمر الأهلية ،

فأسر المسلمون يكفئون القدور بما فيها من لحوم الحمير وهي تفور بها ، وهم في أشد الحاجة إليها لطعامهم.

ثم قام رسول الله بين المسلمين قائلا : (لا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر أن يأتي الحبالى من السبايا فيسقي ماؤه زرع غيره ولا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي حتى يستبرئها بحيضة.

ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنما حتي يقسم ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فيء المسلمين حتى إذا أعجفها – أهزلها – ردها فيه.

ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوبا من فيء المسلمين حتي إذا أخلقه رده فيه.

وإنِّي أنهاكم معشر المسلمين عن بيع أو ابتياع تبر الذهب بالذهب العين وتبر الفضة بالفضة العين ، ولكن : ابتاعوا تبر الذهب بالفضة العين ، وتبر الفضة بالذهب العين).

سقوط حصن ناعم في يد علي البطل الغالب

وكان حصن ناعم هو أول حصون خيبر التي سقطت في يد البطل الغالب الإمام علي بن أبي طالب – كرم الله وجه– وسيق أسرى اليهود أذلاء أمام المسلمين إلي مقر قيادة رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – ليرى فيهم رأيه وسط تكبيرات المسلمين بالفتح فأمر بالإحسان إليهم حتي تنتهي المعركة فيرى فيهم ما يراه من رأي يلهمه الله أياه ، وقام المسلمون بدفن الشهيد محمود بن مسلمة الذي سقطت عليه رحا من أعلي الحصن بيد اليهود فقتلته.

أبو اليسر يطعم المسلمين من أغنام اليهود

أشتد حصار المسلمين لبقية حصون اليهود وجاء الليل ليطرح خيمتــه السوداء علي الكون وأخذت أصابعه القوية تسحب خصلات شعاع الــشمس الذهبية رويدا رويدا حتي تطفئ مصابيح النهار وجاءت غنم لأحد اليهود من خارج الحصن تريد دخوله بعد أن قضت اليوم في أكل العشب وشرب المياه. والعدو في مرح وهي تهز أصوافها، وذيولها المترعة بالشحم.

فقال الرسول القائد : من رجل يطعمنا من هذه الأغنام ؟

فقال أبو اليسر : أنا يا رسول الله .

فقال له الرسول : فأفعل.

فخرج أبو اليسر يعدو مثل ولد النعام الذي يخاف أنياب السد ومخالبه .

فحينما رآه الرسول القائد يعدو هذل العدو ليلحق بالأغنام دعا له بطول العمر قائلا : اللهم أمتعنا به.

وأدرك أبو اليسر الغنم ، وقد دخلت أولاها الحصن ، فأخذ شاتين مــن أكثرها لحما وشحما ، وأحتضنها كالعقاب الكاسر تحت إبطيه ، ثم طار بهما عائدا إلى رسول الله ، وهما تحت جناحي قوته كأنهما مع ثقلهما كريشتين في إعصار عاصف ، أو في أيدي موجة عاتية ، وحينما انتهى في عــدوه إلــى الرسول القائد ، ألقاهما بين يديه ، فأمر الرسول بذبحهما، وأكلهما المسلمون.

وطال عمر أبو اليسر بعد دعاء رسول الله له بطول العمر، حتي كــان يبكي كان يبكي حينما يتذكر دعاء رسول الله ، ويقول أمتعوا بي لعمرى وها أنذا آخر صحابة رسول الله أهلاكا.

النساء يشاركن الرجال في غزوة خيبر

حينما أراد الرسول القائد التوجه بجيشه إلى خيبر ، جاءت فتاة من غفار إلى رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – ومعها نسوة من قبيلتها غفار ، قائلة للرسول القائد : يا رسول الله ، قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا ، ونشارك معك في الجهاد في سبيل الله ، فنداوي الجرحى ، ونعين جنود المسلمين بما نستطيع .

فقال الرسول القائد : اخرجن علي بركة الله ، تقول الفتاة : وكنت جارية حدثة لم أحض بعد فأركبني الرسول القائد خلفه علي حقيبة رحله. فوق ناقته فلما كان أول منزل نزله الرسول مع أصحابه ، في باكورة الصباح ، أناخ ناقته ونزل من فوقها ونزلت عن حقيبة رحله ، وإذا بها دم مني ، وكانت أول حيضة حضتها ، فلفني الخجل بردائه السميك من رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه– فقبضت علي رحل الناقة ، وجلست بجوارها وأنا في غاية الخجل فحينما جاء الرسول ، ورآني قابضة علي الناقة في حياء ، ورأي الدم قال : مالك ؟ لعلك حضت ؟

قالت الفتاة الغفارية : نعم .

فقال لي ، أصلحي من نفسك ، ثم خذي إناء من ماء فاطرحي فيه ملحا. ثم اغتسلي به ، ثم اغسلي به ما أصاب الحقيبة من الدم ، ثم عودي لمركبك.

قالت الفتاة ، فلما فتح الله لرسوله خيبر ، أعطاني وأعطي النسوة من الغنائم ، وأخذ هذه القلادة التي في عنقي فأعطنيها ، وعلقها بيده الشريفة في عنقي ، فوالله لا تفارقني هذه القلادة أبدا.

وكانت هذه القلادة في عنق المرأة الغفارية حتي ماتت ، وقبل موتها

أوصت أن تدفن معها ، وكانت لا تطهر من حيضة إلا جعلت في الماء الذي تطهر به ملحا ، وأوصت أن يجعل الملح في الماء الذي يغتسل به عند موتها فرضي الله عنها.

سقوط حصن القموص في يد علي - كرم الله وجهه - والسيدة صفية بنت حيى بن أخطب تساق إلي رسول الله

سقط حصن القموص ، حصن بني أبي الحقيق ، في يد البطل الغالب علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه- وكان فيه السيدة صفية بنت حيي بن أخطب ، سيد بني النضير الذي قتله الرسول في غزوة بني قريظة ، وكانت السيدة صفية جوهرة اليهود ، زوجة لكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، سيد خيبر ، وكان في هذا الحصن أجمل نساء اليهود ، فسقطن جميعا سبايا في أيدي المسلمين.

وأرسل البطل الغالب علي صفية وامرأة أخري معها إلي رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه -.

فمر بها بلال علي قتلي اليهود ، فما رأت المرأة التي مع السيدة صفية القتلي من رجال اليهود ، صاحت وصكت وجهها ، وحثت التراب علي رأسها ، فلما رآها الرسول القائد قال :

أبعدوا عني هذه الشيطانة ، وألقي رداءه علي صفية - رضي الله عنها- فعلم المسلمون أنه قد اصطفاها زوجة له.

وقال لبلال موبخا :

أنزعت منه الرحمة يا بلال ، حين تمر بامرأتين علي قتلى رجالهما ؟!

وكانت صفية - رضي الله عنها - قد رأت في المنام وهي عروس

بكنانة بن الربيع ، أن قمرا وقع في حجرها ، فعرضت رؤياها علي زوجها كنانة. فقال : ما هذا إلا أنك تتمنين ملك الحجاز محمدا . زوجا لك.

ثم لطمها لطمة قاسية ، خضر عينها منها ، فجاءت إلى رسول الله وبها أثر منه ، فسألها ما هو .؟ فأخبرته بالخبر.

وهكذا صدقت رؤياها ، وأسلمت لله رب العالمين ، وصارت زوجة لرسول الله ، وأما للمؤمنين - رضي الله عنها-.

وأمر رسول اله بقتل كنانة بن الربيع حينما رفض الإخبار عن مكان كنز بني النضير ، فدفعه إلي الزبير بن العوام ، فعذبه ليخبر عن الكنز ، بأن كان يقدح في صدره زناد من حجر ، حتي أشرف علي الهلاك ، وكان أمر الرسول بتعذيبه لما فعله بالسيدة صفية - رضي الله عنها- فقد كان قاسيا عليها ، غير رحيم بها.

ثم ليخبر عن مكان الكنز أيضا ؛ لأنه قوة للمسلمين ، وحينما رفض الأخبار عن بقية الكنز ، الذي عثر المسلمون علي بعضه بدلالة أحد اليهود . الذي رأ ى كنانة يطيف بخرابة ، فأخبر الرسول فحفر المسلمون في هذه الخرابة ، فعثروا علي بعض الكنز.

فحق قتل كنانة : لأن الرسول قال له :

أرأيت يا كنانة أن وجدنا الكنز عندك أأقتلك ؟

قال : نعم .

فدفعه الرسول إلى محمد بن مسلمة ، فقتله بأخيه محمود بن مسلمة .

معركة محمد بن مسلمة مع مرحب بطل اليهود

استطاع البطل الغالب علي بن أبي طالب – رضي الله عنه– أن يكتسح حصون اليهود الحصينة كإعصار جارف ، أو فيضان زاحف ، أو نيران تسوقها الرياح في حقل من الأعشاب والأشجار التي جففتها حرارة شمس الصيف الحارقة .

وبقي بعض الحصون لم تفتح بعد ، وجاء بنو سهم من أسلم إلى رسول الله قائلين.

يا رسول الله عضنا الجوع وما بيدنا شيء ، فقال الرسول :

اللهم أنك قد عرفت حالهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم أياه ، فأفتح عليهم أعظم حصون خيبر طعاما ، وودكا – إداما – فأصبح المسلمون ففتح الله علي أيديهم حصن الصعب بن معاذ ، ولم يكن بخيبر أكثر منه طعاما وإداما ، وذلك ببركة دعاء رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – ربه السميع المجيب ، وكان كل حصن يفتتح ، يحصل الصحابي ابن لقيم العبسي علي ما فيه من دجاج أو أوز أو بط ، أو حمام أو أرانب ؛ لأن الرسول وعده بذلك.

ولم يبق من حصون خيبر، سوي حصني الوطيح والسلام ، وهنا خرج البطل اليهود مرحب الحميري ، وكان من حمير، معاهدا لليهود ، خرج مرحب يطلب البراز ، وقتال أبطال المسلمين وهو يقول :

قد علمت خيبر أني مرحب   شاك السلاح بطل مجرب
أطعن أحيانا وأحيانا أضرب   إذا الليوث أقبلت تحرب
أن حماي للحمي لا يقرب

فقال رسول الله : من لهذا ؟

فقال محمد بن مسلمة : أناله يا رسول الله. أنا والله الموتور الثائر قتل أخي محمود أريد أن أثار له.

فقال الرسول : قم إليه . اللهم أعنه عليه.

فخرج إليه البطل محمد بن مسلمة ، ودارت بينهما معركة رهيبة . وكان بينهما شجرة عجوز، فكان كل منها يلوذ بها من صاحبه ، حتى قطعت السيوف غصونها ، وبقيت بينهما كالرجل القائم ، من غير فروع ، ثم حمل علي محمد بن مسلمة ، فضربه ، فاتقي الضربة الهائلة بالدرقة ، فوقع سيفه فيها ، فأمسكته ، وضربه البطل محمد بن مسلمة فقتله ، فكبر وكبر المسلمون ، وهزم اليهود ، وسلموا آخر حصونهما ، بعد أن أيقنوا بالهلاك.

الصلح بين الرسول ويهود خيبر

استسلم اليهود لرسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – وسقطت خيبر الحصينة آخر معاقل اليهود في جزيرة العرب في أيدي المسلمين ، تحت صواعق ضربات البطل الغالب علي بن أبي طالب – رضي الله عنه– وكرم الله وجهه– وتحت عواصف سيوف أبطال المسلمين. وأمام عبقرية القائد الأعظم محمد – صلوات الله وسلامه عليه – وقف اليهود العتاة القساة صاغرين أمام الرسول القائد ، وحياتهم معلقة بكلمة منه أن أراد الله ذلك.

ولكن القائد الرسول أعظم أبطال العالم في الحرب والسلام المبعوث من الله رحمة للعالمين رأى بثاقب رأيه ، وبنور بصيرته ومن أجل محبته للسلام والإصلاح أن يتبع مع يهود خيبر الخطوات الآتية :

أولا: حقن دماء اليهود والعفو عنهم ، من موضع القوة الغالبة ، وهم الذين

طالما تآمروا ضدة ، وضد الإسلام والمسلمين وهم الذين تنص كتبهم علـي إبادة كل من ينتصرون عليهم إبادة كاملة أشخاصا ومواشي ومبـاني بالقتـل وإشعال النيران ، ولكن الإسلام دين الحق الذي لم يحرف ولم يغيـر كتابـه المقدس يحض علي العفو والرحمة ، وقد رحمهم القائـد الرسـول وحقـن دماءهم .

ثانيا : لم يرد الرسول الأموال والسبايا والغنائم التي سقطت في أيـدي المسلمون. من الحصون التي قاومت وفتحت عنوة. وهي كل حصون خيبـر ماعدا حصني الوطيح والسلالم. فقد صالحا رسول الله علي أن يحقن دماءهم. ويسيرهم إلي أي جهة شاء ، ويتركوا له الأموال ، ولا يسبي نساءهم ، وقـد اكتفى الرسول الرحيم بأخذ نصف أموال اليهود هذين الحصنين - الـوطيح السلالم – فقط .

وعفا لهم عن نصف أموالهم. كرما منه ، وإحسانا ، وكان الذي سـعى بين يهود الحصنين وبين الرسول بالصلح الصحابي الجليـل محيـصة بـن مسعود أخو بني حارثة.

ثالثـا : أبقي الرسول القائد خيبر في بلدهم ، لزراعتها علي أن يكـون للمسلمين نصف الخارج من أرضهم. وهذه خطة حكيمة من رسـول الله – ﷺ لأنهم أعلم بزراعة أرضهم من المسلمين ، فأمة الإسلامية الناشـئة فـي حاجة إلي مجهودهم الزراعي ، لانشغال المسلمين بالفتح ونـشر ديـن الله . وتقويض دعائم الشرك والظلم في العالم من حولهم .

رابعا : باستيلاء المسلمين على أموال اليهود الكثيرة وأسلحتهم العديدة . وإبقائهم فقط كعمال لزراعة الأرض. تقليم لأنيابهم وأظافرهم ، واستئـصال لقوتهم ، وتقوية للمسلمين على حسابهم ، وإحساس بـالأمن مـن جهـتهم .

وقضاء على الخطر الذي كان ينبعث منهم ، وتفرغ المسلمين لغيرهم .

خامسا : القضاء على خيبر كقوة اقتصادية تجارية ضخمة في جزيرة العرب بتفرغهم لزراعة الأرض فقط كعمال لها.

سادسا : حظر حمل الأسلحة عليهم. ونزع السلاح من أيديهم ، وهي خطوة متقدمة سبق بها رسول الله دول العالم في العصر الحديث ، التي عرفت نزع سلاح مناطق الخطر.

سابعا : اشترط الرسول السياسي القائد في صلحه مع اليهود على أن بقاء اليهود في خيبر هو رهن بمشيئة المسلمين ، فلو شاء المسلمون إخراجهم من ديارهم مستقبلا لهم ذلك ، وهي نظرة بعيدة من رسول الله ، حتى لا يكون بجزيرة العرب دينان، حينما ينتشر الإسلام ، ويكثر اليهود ، وقد أوصي الرسول – صلوات الله وسلامه عليه– في مرض وفاته ، بأن لا يبقى بجزيرة العرب دينان .

ونفذ ذلك الفاروق عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– فأخرج اليهود والنصارى إلى الشام ، مع تعويضهم عن أموالهم ، لأن جزيرة العرب هي قلب الإسلام.

المرأة اليهودية التي وضعت السم لرسول الله في الشاة :

بعد أن تم فتح خيبر وإقرار أهلها فيها لزراعتها وللمسلمين نصف الخارج من أرضهم ، أهدت له زوجة سلام بن مشكم اليهودية شاه مشوية مسمومة. وأكثرت من السم في ذراع الشاة لأنها علمت أن الرسول يحب الذراع. ثم جاءت بالشاة. ووضعتها أمام رسول الله هدية له ولأصحابه الأبطال وقبل الرسول المتواضع الرحيم والقائد المنتصر هذه الهدية المتواضعة من تلك المرأة الماكرة ، حتى يدخل السرور إلي نفسها ، ولإثبات

أنه لم يعد في نفسه من اليهود شيء ، ولفتح صفحة جديدة معهم ، ولأنه لم يكن يرد هدية قط ، مهما كانت متواضعة حتى ولو كانت فخذ أرنب ، أو قطعة من دهن متواضعة ، وحتى لا يلحق الخجل ويكسر نفس المهدي .

وتناول الرسول القائد الذراع فلاك منها قطعة ، فلم يلبث أن لفظها من فمه الشريف قائلا في أعجاز نبوي :

(أن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم) فقد أنطق الله -تعالي- له العظم ليخبره بأنه مسموم . وأكل مع الرسول من هذه الشاه الصحابي الجليل بشر بن البراء بن معزور. فابتلع بشر قطعة من الشاة ، ومات شهيدا منها - رضي الله عنه- وجاءت المرأة الشيطانية أمام رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - فسألها قائلا : لماذا فعلت هذا ؟

بلغت من قومي يا رسول الله ما لم يخف عليك ، من انتصار عليهم . وقتل أبطالهم ، والاستيلاء علي أموالهم وأطفالهم ونسائهم وديارهم ، فقلت في نفسي أن كان ملكا استرحت منه بهذه الشاة المسمومة ، وأن كان نبيا فسيخبره الله بذلك.

وشعر الرسول القائد ، صاحب القلب الرحيم ، وخير مقدر النواحي الضعف في النفس البشرية ، والعارف تمام المعرفة بمدى ما تنطوي عليه قلوب النساء من عواطف جياشة تطغي علي عقولهن ، شعر الرسول القائد بآلام هذه المرأة ، وضعفها الآن أمامه ، فعفا عنها وهي التي تسببت في قتل أحد أصحابه ، وأرادت قتله هو مع التعمد والقصد وسبق الإصرار.

فهل عرفت الدنيا قديما وحديثا مثل هذا العفو من القادة الذين يسير النصر في ركابهم ، أو القادة المهزومين ، أو الزعماء والحكام في كل زمان ومكان ؟! ... العفو عمن أراد قتلهم ؟! . لقد قامت الحرب العالمية الأولي بين شعوب أوربا المتحضرة من أجل اغتيال ولي عهد النمسا ، وذهب

ضحية هذه الحرب الملايين من القتلى والمشوهين والعـــاجزين ، وتغيـــرت حدود الدول ، وظهرت دول جديدة علي خريطة العالم ، وإمبراطوريات كان يشار لها بالبنان ، واختفت من خريطة العالم ، كل هذا من أجل مقتل ولـــي عهد إمبراطورية النمسا والمجر ، في عهد حضارة القرن العشرين ، وبعــد رسول الله بأكثر من ألف ومائتي عام ؟

فهذا العفو من الرسول القائد عن هذه المرأة اليهودية وارثـــة الخيانـــة اليهودية ، هذا العفو انتصار علي النفس لا يكون لبشر عادي بل لا يكون إلا لأعظم أبطال العالم في كل العصور ، لا يكون ألا لمحمد رسول الإســـلام – صلوات الله وسلامه عليه –.

صلح رسول الله مع يهود فدك

وبعد انتصار رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – على خيبـــر ، وعقد الصلح معهم خشي يهود فدك من اجتياح الرسول لهم ، فأرسلوا إليـــه يطلبون مصالحته علي نصف أموالهم ، علي أن للمسلمين أن يخرجوهم مـــن أرضهم إذا شاءوا ذلك ، وكل ما يخرج من أرضهم التي هم أعلم بزراعتهـــا من المسلمين ، فللرسول النصف ، وقد وافق الرسول القائد علي ذلك.

وسارت فدك خالصة لرسول الله خالصة ، كما نص على ذلك القرآن ، لأنها صالحت رســـــول الله من غير أن يجلب عليها المسلمون الخيل والركاب .

عظمة الرسول الزوج وعظمة زوجته السيدة صفية

أراد الرسول الزوج أن يدخل علي زوجته قوية الإيمـــان ، الراجحـــة العقل ، سليلة نبي الله هارون رسول الله ، السيدة صفية بنت حيى بن أخطب النضرية ، ابنة زعيم يهود بني النضير ، الذي قاد العـــرب واليهـــود يـــوم

الأحزاب لحرب محمد والقضاء عليه وعلى دينه وعلى المسلمين ، والذي دفع يهود بني قريظة للغدر برسول الله وبالمسلمين ، وينقض المعاهدة التي بينهم وبينه ، والذي جعل المسلمين بن فكي الكماشة في غزوة الأحزاب. العرب أمامهم ، واليهود خلفهم ، حتى بلغت القلوب الحناجر ، وكادت القلوب تفقز من الأفواه شدة الخوف لولا نصر الله للمسلمين بجنوده لم يروها من الملائكة وعوامل الطبيعة ، وقد قتل حيي بن أخطب والد السيدة صفية فيمن قتل من رجال بني قريظة .

وحينما رأي الرسول القائد صفية في رق السبي ، ورأي قوة إيمانها ورباطة جأشها ، حيث لم تولول على قتلى اليهود مثل رفيقتها وهي تمر بهم مع بلال - رضي الله عنه- وحينما وقفت أمام الرسول القائد شهدت أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ورأي في عينيها التعظيم لنبوته .

فلم يوافق علي أعطائها لدحية بن خليفة الكلبي ، الذي سأله أياها. والذي كان الملاك جبريل - عليه السلام- يتمثل في صورته لجماله ، بل أعطاه الرسول غيرها من جميلات اليهود ، وأراد الرسول صاحب القلب الكبير. أن يحفظ لصفية عزتها وكرامتها ، وهو الذي قتل والدها وعمها وزوجها ، فعقد عليها ، وصارت زوجة له ، وحينما أراد الارتحال من خيبر إلي المدينة ، أراد أن تركب السيدة صفية - رضي الله عنها - خلفه ، إظهارا لمكانتها عنده وجبرا لخاطرها ، وإدخالا للسرور إلي نفسها ، فوضع فخذه تحت قدمي زوجته ، كي تجعل منه سلما تعلو عليه إلي الناقة ، فلله ما أعظم أخلاقك يا حبيبي يا رسول الله - صلوات الله وسلامه - عليك ، فماذا فعلت الزوجة المهذبة السيدة صفية - رضي الله عنها- هل داست بحذائها علي فخذ رسول الله.. كلا . كلا. بل وضعت ركبتها علي فخذ رسول الله وصعدت إلي ظهر ا لناقة الباركة ، فلله أخلاقك يا درة اليهود

الغالية ، ويا سليلة رسول الله هارون. ويا أم المؤمنين.

وفي بعض الطريقة إلي المدينة ، نزل رسول الله والمسلمون ، وأقبل الرسول إلي زوجته السيدة صفية بعد أن جملتها له ، ومشطتها ، السيدة أم سليم بنت ملحان ، أم أنس بن مالك ، فسألها الرسول الزوج وهي تتألق بهاء

- أموافقة علي أن أدخل بك يا صفية ؟
- هذا أعظم آمالي في الحياة وحلم عمري يا رسول الله .
- لماذا أذن رفضت أن أدخل بك في خيبر؟
- خشيت عليك من اليهود حيث كان في نفوسهم الحقد عليك مالا يخفى يا رسول الله ، وكنت أريد أن أتهيأ لك أجمل هيئة يا رسول الله ، فهل ذهب ما في نفسك من الوجد علي يا رسول الله ، حينما منعتك نفسي بعد أن عرفت الآن السبب.
- نعم يا صفية .

ودخل رسول الله علي درة بني إسرائيل. وخير الزوجات. وكانت ليلة العمر لها. ومن خير ليالي رسول الله الزوج.

وبات أبو أيوب الأنصاري - رضي الله عنه- يطيف بالقبة التي فيها رسول الله مع عروسه. يحرس رسول الله. متوشحا بالسيف. وكله آذان تتصنت علي أي بادرة غدر ضد رسول الله. فأبو أيوب الأنصاري هو الرجل الذي نزل في بيته ثمانية أشهر عند قدومه إلي المدينة. حتي بني رسول الله بيوت أزواجه. وبني المسجد النبوي ، وهو من بني النجار من بطون الخزرج أخوال عبد المطلب جد رسول الله، حينما أصبح رسول الله رأى أبا أيوب يطوف بالقبة ، لم يغمض له جفن طوال الليل ، حارسا لرسول الله. فقال له الرسول : مالك يا أبا أيوب ؟

- خفت عليك من هذه المرأة يا رسول الله وقد قتلت أباها وعمها وزوجها وقومها. وهي حديثة عهد بكفر ، فخفتها عليك.

-اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني.

هكذا سر رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - من تصرف هذا الصحابي الجليل ، ودعا له هذا الدعاء العظيم ، وهكذا كان أصحاب رسول الله يبذلون حياتهم وراحتهم وأموالهم وأولادهم في سبيل الحفاظ عليه ، ومرضاته وحمايته من أعدائه ، فصلوات الله عليهم أجمعين.

قدوم جعفر بن أبي طالب علي رسول الله في خيبر

وقدم علي رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - ابن عمه الحبيب جعفر بن أبي طالب هو والمهاجرون معه إلى الحبشة ، فأعتنقه رسول الله فرحا مسرورا. وقبل ما بين عينيه. وقال :

(ما أدري بأيهما أنا أسر ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر).

وقد سر رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - غاية السرور بقدوم البطل جعفر بن أبي طالب والمهاجرون من الحبشة. وقد قسم لهم رسول الله من غنائم خيبر. مثلهم كمثل المقاتلين سواء. لأن هجرتهم إلي الحبشة من اضطهاد قريش لهم كانت جهادا في سبيل الله.

وقد سر رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - غاية العادل المسلم يطلب منه عودة المهاجرين ، ويشكره علي حسن ضيافته لهم. طوال تلك السنوات التي أقاموها في بلده ، تحت رعايته وإحسانه ، ومظلة عدله ومحبته ورحمته ، وكان الذي حمل رسالة رسول الله إلى النجاشي ، وعاد بالمسلمين هو البطل الفاتك الذي يسبق الخيل في العدو عمرو بن أمية الضمري -

رضي الله عنه- وقد حملهم النجاشي في سفينتين من سفنه إلى بلادهم.

أم حبيبة زوجة رسول الله

وقد عادت مع جعفر أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حـرب زوجـة رسول الله ﷺ وأم المؤمنين - رضي الله عنها-التي ما زوجها عبيد الله بـن جحش في الحبشة بعد تنصره ، فتزوجها رسول الله ، ودفع مهرها النجاشي ملك الحبشة عن رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - ومكثت سـنوات بعيدا عن زوجها الحبيب الرسول القائد ، الذي تزوجها لتكريمها ، وإعجابـا بقوة إيمانها الذي لم يهتز مع كونها امرأة غريبة ، قاطعها أهلها ، وارتد عن الإسلام زوجها ، ولو كان رسول الله تزوجها عن شهوة كما يزعم المفترون من أبتاع الباطل ، لأمر بعودتها فورا إلي أحضانه ، ولكنـه تزوجهـا لمـا ذكرت ، وتقربا من أبي سفيان بن حرب زعيم قريش ، الذي قال حينما سمع بهذا الزواج عن رسول الله :

(هو الفحل الذي لا يضرب أنفه) كناية عن شرف رسـول الله وعلـو حسبه ونسبه ، وأنه لا يجد لابنته زوجا أفضل منه.

إسلام الراعي الأسود واستشهاده

وحينما كان رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - محاصرا لبعض حصون خيبر ، جاءه الراعي الأسود ومعه غنم له كثيرة ، يسوقها أمامه ، ثم وقف الراعي الأسود بغنمه أمام رسول الله قائلا له : أعراض علي الإسلام يا رسول الله فأنا شديد الرغبة في الدخول في دينك.

- قل أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.
- أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله
- الحمد لله الذي وفقك للإسلام ، وأنقذك به من النار.

- يا رسول الله ، هذه الغنم أمانة عندي . فأنا أجير لـصاحبها اليهـودي .
وأريد أعادتها إليه ، وأخشي الذهاب بها فأفتن في ديني ، فكيف أصـنع بها؟
- أضرب في وجوهها فإنها سترجع إلي ربها .
- بأبي أنت وأمي يا رسول الله - صلوات الله وسلامه عليك-.

فأخذ الراعي حفنة من الحصي ، فضرب بها في وجوهها برفق قائلا : ارجعي إلي صاحبك فو الله لا أصحبك أبدا بعد هذا اليوم ، مع أنني وجـدت كل السعادة في صحبتك ، إلي العشب الأخضر ، والسماء الزرقاء الـصافية والجبال والصحراء الصفراء والميّاه البيضاء الفضية التي كنت أسـتخرجها لكم من الآبار ، ومع وداعتكم وحبكن لي.. ووثبكن في رشاقة من حـولي ، وعدوكن مع كلبي الحارس لكن في مرح وسرور، آه ، كم شربت من ألبانكن اللذيذة .

والآن وداعا يا أغنام الغاليات ، وأنت يا كلبي الأمين ، هيا مع أغنامك إلي صاحبك اليهودي.

وتمسح الكلب بصاحبه والدموع في عينيه ، وارتفـع ثغـاء الأغنـام والدموع تتساقط من عيونها ، ثم أسرعت مع الطلب إلي داخل أسوار خيبر. إلي اليهودي طاعة لأمر رسول الله - صلوات الله وسلامه عليـه - دخلـت الأغنام الحصن مجتمعة كأنما سائقا يسوقها.

ثم أسرع الراعي إلى هذا الحصن المحاصر ليقاتل مع المسلمين إخوانه في الدين سادته اليهود ، وسقط حجر من الحصن علي الراعي المسلم فسقط شهيدا وما صلي لله ركعة بعد ، وجاء به الصحابة إلى رسـول الله فوضـع خلفه ، وطاه الرسول بشملة كانت عليه ، ودعا له الرسول بالرحمـة ، ثـم

التفت الرسول إليه ومعه أصحابه ، ثم أسرع بعض بصره عنه ، والإعراض عن النظر إلى ناحيته ، فقال الصحابة :

لماذا أعرضت عنه يا رسول الله ؟! .. فقال الرسول العظيم :

إن معه الآن زوجتيه من الحور العين ؛ لأن الشهيد إذا ما أصيب تدلت له زوجتاه من الحور العين ، تنفضان التراب عن وجهه ، وتقولان : تــرب الله وجه من تربك ، وقتل من قتلك فكبر المسلمون تكبيرا هزّ حصون اليهود واندفعوا إلي القتال يريدون الاستشهاد في سبيل الله ، والصعود إلي الجنة مع زوجاتهم من الحور العين.

قدوم الطفيل بن عمرو الدوسي مع قومه إلى رسول الله

وقدم الطفيل بن عمرو الدوسي – رضي الله عنه– مــع قومـــه بعــد إسلامهم إلى رسول الله بخيبر بعد فتحهــا ، فــسر رســول الله بإســلامهم وبقدومهم وقسم لهم من غنائم خيبر ، وكان الطفيل قد دعا قومه إلى الإسلام فتباطئوا عليه. فجاء إلى رسول الله وهو شديد الغضب علــيهم ، فقــال يــا رسول الله :

ادع الملك بهلاك دوس ، ونزل العقاب بهم ، فقال الرسول الــرحيم : (اللهم اهد دوسا ، يا طفيل ارجع إلي قومك فادعهم إلـــى الإســـلام وارفــق بهم). فلله أنت يا رسول الرحمة يا سيدي يا رسول الله ﷺ

٢٦- غزوة ذي قرد

أغار عيينة بن حصن الفزاري في خيل عطفان علي إبل لرسول الله ﷺ بالغابة بالقرب من المدينة ، فقتلوا راعي الإبل وهو رجل من غفار ، وسبوا زوجته ، وساقوا الإبل أمامهم ، فكان أول من رآهم البطل العظيم سلمة بــن الأكوع الأسملي ، فعلا جبل سلع وصاح (وأصباحاه).

ثم خرج يعدو في آثار القوم كالأسد الغضبان الجائع الذي يطارد فريسة من الغزلان ، وكان رضي الله عنه يسبق الخيل في العدو ، ومن أعظم رماة المسلمين أصابه بالسهام والنبال ، ولحق سلمة بالعوم فأخذ يردهم ناحية المدينة يقذف النبل عليهم ، وكان كلما قذف نبلة في رجل من الأعداء قال : خذها وأنا ابن الأكوع.

وبلغ رسول الله صياح سلمة فصرخ بالمسلمين الفزع الفزع. فانهالت إليه خيول المسلمين كالبحر الزاحف. عليها أبطال كالجبال الشوامخ وخرج الرسول القائد يطارد عيينة بن حصن وغطفان كما يطارد النسر الكاسر عصفورا ضعيفا يري الموت يحيط به من كل مكان. ولا نجاة له من مخالب النسر الجوعان. فيضرب الهواء بجناحيه الضعيفين قبل الموت والهوان.

وطار البطل المقدام أبو قتادة الأنصاري علي فرسه حزوة الذي يسابق الريح حتي لق بحبيب بن عيينة بن حصن، فأعدمه الحياة بسيفه البتار ، وجعل والده عيينة بن حصن الذي سماه الرسول القائد بالأحمق المطاع يبكي عليه قطرات من نار ، وخلع أبو قتادة برده وغطى به قتيله ، وانطلق يطارد بقية الهاربين .

وحينما أقبل الرسول القائد مع فرسانه الأبطال قال المسلمون إنا لله وإنا إليه راجعون ، قتل أبو قتادة ، فقال الرسول الملهم : ليس بأبي قتادة ، ولكنه قتيل لأبي قتادة ، وضع عليه برده لتعرفوا أنه صاحبه .

وأدرك عكاشة بن محصن علي فرسه ذو اللمة أوبارا وابنه عمرو بن أوبار وهما علي بعير واحد ، فقال لهما : إلى أين الهرب أيها اللصان ، واخترق برمحه الأب والابن معا ، كما تخترق أشعة الشمس لوحين من الزجاج.

واسترجع المسلمون بعض إبل رسول الله ﷺ وسقطت في أيديهم بعض الغنائم من الأعداء المنهزمين ، ونزل الرسول القائد مع أبطاله يوما وليلة

علي الجبل بذي قرد ، وقسم الرسول الغنائم في أصحابه ، فأصاب كل مائة منهم بعيرا ، وقال البطل سلمة بن الأكوع لرسول الله :

لو أرسلتني يا رسول الله في مائة رجل لاستنفذت بقية الإبل ، وأتيتك ببقية القوم أسارى تضرب أعناقهم.

رحمك الله يا سلمة ، إنهم الآن في ديارهم يشربون لبن العشى .

زوجة الراعي القتيل تفر على ناقة رسول الله

وأقبلت زوجة الراعي القتيل هابرة من أسريها علي ناقة رسول الله . قائلة له :

يا رسول الله أني قد نذرت لله أن أنحرها أن نجاني الله عليها ، فتبسم الرسول تبسم الزهور للغدران في أيام الربيع قائلا لها :

بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تنحرينها.

أنه لا نذر في معصية ولا فيما لا تملكين ، أنما هي ناقة من أبلي فأرجعي إلى أهلك على بركة الله .

الرسول والوفاء حتى للحيوان

فلله أنت أيها الرسول الرحيم ، الوفي ترفض ذبح ناقة أنجي الله عليها امرأة من المسلمين ، وفاء لهذه الناقة ، ورحمة بها ، وعطفا عليها ، لتغرس خلق الوفاء في أمتك حتي للحيوان ، إنك القائل :

حسن العهد من الإيمان ، أي حسن الوفاء من علامات الإيمان الكامل.

غزوة مؤتة :

كانت هذه الغزوة في جمادي الأولى سنة ثمان من الهجرة ، وكانت هذه المعركة العظيمة في بلدة مؤتة من أرض البلقاء بالشام ، وكانت هذه الغزوة

لتأديب القبائل الموالية للروم. التي قتلت رسول رسول الله إلى ملك غسان. وكان عدد أفرادها ثلاثة آلاف بطل من أبطال المسلمين. وكان فيهم سيف الله المسلول خالد بن الوليد – رضي الله عنه- بعد إسلامه.

وقال رسول الله ﷺ : أمير القوم زيد بن حارثة فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب فإن أصيب فعبد الله من رواحة.

وهناك في مؤتة وجد المسلمون أن الروم قد حشدوا لهم أكثر من مائتين وعشرون ألفا من جنود الروم والعرب الموالين لهم. من قبائل لحم وجذام والقين وبهراء وبلي .

وأراد المسلمون أن يكتبوا إلي رسول الله بعدد الأعداء. ليمدهم بالجنود أو يأمرهم بأمره ، فقام البطل الفارس الشاعر عبد الله بن رواحة الأنصاري. قائلا مشجعا الناس على القتال :

يا قوم والله أن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة في سبيل الله وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة. ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به. دين الإسلام العظيم. فانطلقوا فإنما هي أحدي الحسنيين أما ظهور وأما شهادة ، فقال أبطال الإسلام : صدق والله ابن رواحة .

ثم سارع أبطال الإسلام يسابقون الريح إلى أعدائهم ، في بطولة خارقة لم يعرفها العالم من قبل ، فكان كل بطل من المسلمين يواجه أكثر من سبعين من أبطال الروم والعرب .

وسقط القائد الشجاع زيد من حارثة شهيداء بين طوفان الأعداء ، وتناول الراية البطل الصنديد جعفر بن أبي طالب- رضي الله عنه- وخاض في بحار الهول ، وغابات الرماح والسيوف والسهام. ونزل من فوق فرسه الشقراء ، وقاتل القوم قتالا رهيبا ، والنقع يصنع سماء سوداء فوق الرءوس

والأسنة والسيوف تلمع كالنجوم ، وصهيل الخيول وقعقعة السيوف فوق التروي والخوذ كدوي الرعد ، ولمعان السيوف وهي تشق ليل الغبار كالبرق المارق في أحشاء الليل ، وانفجار الدماء القانية الحمرة من الأجساد كانصباب المطر من سحب السماء السوداء ، وقطعت يد جعفر سيد الأبطال اليمني فحمل الراية بيده اليسري ، فقطعت ، فأمسك الراية بعضديه ، حتي سقط شهيدا ، وطار إلي الجنة بجناحين من نور، يرتع فيها حيث شاء بعد أن فاح مسك دمه علي أرض المعركة.

قتال سيد الأبطال وهو في ريعان شبابه وقوته في الثالثة والثلاثين من عمره المبارك.

وتناول الراية البطل الشاعر عبد الله بن رواحة الأنصاري ، وترنم قائلا: مخاطبا نفسه وحاثا لها علي الموت في سبيل الله :

يا نفسي الا تقتلي تموتي   هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد أعطيب   أن تفعلي فعلهما هديت

يا نفسي مالي أراك تكرهين الجنة ؟ .. قد طال العمر الذي كنت فيه بين أهلك مطمئنة ، هل أنت يا نفسي ألا نطفة ماء في سقاء بال ما أسرع ما تجففك الشمس بحرارتها أو تقطرين من ثقوب السقاء البالي ، ما أقصر أيام الدنيا مهما طالت ، وما أعظم الشهادة في سبيل الله ، واللحاق بالبطلين زيد وجعفر في جنان الخلد والرضوان ، وقبل أن ينطلق البطل إلى الميدان ، جاءه ابن عم له بقطعة من عظم عليها بعض اللحم قائلا له :

خذ هذه فشد بها صلبك ، فأنك يا أخي قد لقيت في أيامك هذه المهولة ما لقيت من متاعب تندك منها الجبال .

هات ، وتناول البطل العظم وأخذ قطعة لحم من فوقه بمقدم أسنانه . وكــان في غاية الجوع ، ولكنه سمع صليل السهام ، وصــهيل الخيـول ، وقعقعـة السيوف ، فصاح قائلا :

يسارع المسلمون إلي الجنة وأنت في الدنيا ؟ .. وسارع بإلقاء العظـم من يده. وشهر سيفه القاطع. وأندفع يحمل راية الموت إلى بحــار الأعـداء. فقاتل قتال الأبطال ، حتى تكاثر عليه الأعداء فسقط شهيدا ، لتسرع روحـه إلي جنان الخلد والرضوان.

ثم أخذ الراية البطل الثابت بن أقرم أخو بني العجلان ، فقال :

يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ، يتولى قيادتكم.

– أنت.

– ما أنا بفاعل.

فاصطلح الناس على سيف الله المسلول خالد بن الوليد – رضي اله عنـه– فأخذ الراية ، وناش الروم والعرب ، حتى إذا كـان المـساء قـام بخدعـة عسكرية رائعة ، فقلب الميسرة ميمنة ، والميمنة ميسرة. والمقدمة مـؤخرة ، والمؤخرة مقدمة ، وكذلك الساقة والجناحين ، ليوهم الروم وحلفاءهم العرب. بأن مددا قد جاء للمسلمين بعد ثلاثة أيام من القتال المريـر. وقـد نجحـت الخدعة ، وفت ذلك في عضد الروم والعرب.

وقالوا لبعضهم قد رأيتم قتالهم وهم قلة فكيف بعـد إذ جـاءهم المـدد. وهابوا قتالهم. وكان هذا ما يريده خالد. الذي أنسحب بجيشه الصغير الشجاع لأن الانسحاب هنا هو النصر الكامل ، حفظا لهؤلاء الأبطال لمعارك مقبلة لا شك فيها.

الرسول يتنبأ بما حدث للمسلمين

ومن آيات صدق رسالة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه- أنه وقف بين المسلمين بعد استشهاد الأبطال الثلاثة قائلا :

أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتي قتل شهيدا ، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتي قتل شهيدا، ثم صمت رسول الله حتي تغيرت وجوه الأنصار و ظنوا أنه قد وقع من بطلهم عبد الله بن رواحة ما يعابون به .

ثم قال رسول الله القائد : ثم أخذها عبد الله بن رواحة ، فقاتل بها حتي قتل شهيدا ، ثم قال رسول الله والدموع في عينيه :

(لقد رفعوا إلَيَّ في الجنة فيما يري النائم علي سرر من ذهب ، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ميلا عن سريري صاحبيه. فقلت عم هذا؟ .. فقيل لي : مضيا للقتال بدون تردد. وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضي).

إن أخبار الرسول الكريم بتلك الأخبار بسرعة البرق. لخير دليل علي صدقة. وكونه رسول الله حقا. فقد أخبر بما حدث في ميدان القتال البعيد عن المدينة ،بعد ساعات قليلة من وقوعه، فهل بعد هذا شبهة لمشكك في رسالته؟

حزن الرسول علي ابن عمه البطل جعفر الطيار

كان الرسول القائد شديد الحزن علي فراق ابن عمه البطل الحبيب جعفر الطيار ، وأراد الله تعالى الرحيم أن يذهب بعض أحزانه على البطل الحبيب فأراه البطل في الجنة فقال رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه- : (دخلت الجنة البارحة فرأيت جعفرا يطير مع الملائكة وجناحاه مضرجان بالدم).

وسمع رسول الله ابنته فاطمة حين جاء نعي جعفر تقول تقول وا عماه فقال : على مثل جعفر ، فلتبك البواكي.

وتقول أسماء بنت عميس زوجة البطل الشهيد جعفر: لما أصيب جعفر وأصحابه ، دخل علي رسول الله ﷺ ، وقد عجنت عجيني وغسلت أبنائي ودهنتهم ونظفتهم ، فقال لي رسول الله : ائتيني ببني جعفر ، فأتيته بهم فتشممهم وذرفت عيناه ، فقلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما يبكيك أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟ قال : نعم أصيبوا هذا اليوم ، فقمت أصيح . واجتمعت إلى النساء ، وخرج رسول الله إلى أهله فقال لهم :

لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاما فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم.

وأخذ أبناء جعفر فمكثوا في بيته ثلاثة أيام.

(لقاء رسول الله مع أبطال المسلمين)

ولما اقترب جيش المسلمين من المدينة تلقاهم رسول الله والمسلمون خارج المدينة ، ولقيهم الصبيان يعدون ، فقال رسول الله في رحمة :

خذوا الصبيان فاحملوهم معكم علي دوابكم وأعطوني عبد الله بن جعفر. فأخذه فحمله على دابته بين يديه ، وجعل الناس يحثون علي الجيش التراب ويقولون يا فرار ، فررتم في سبيل الله ، فقال هم رسول الله مخبرا بما هو بعد في بطن الغيب : ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار أن شاء الله – تعالى . وكان رسول الله قد قال بعد أن نعي قواد الجيش الثلاثة : ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله ،يفتح الله علي يديه ، وهو البطل خالد بن الوليد ﷺ

وهكذا كان خالد ، فقد كان بعد وفاة رسول الله ، هو البطل المنتصر دائما في كل معارك ، التي خاضها ضد المرتدين من العرب ، وضد جيوش الإمبراطورية الفارسية ، وضد جيوش الإمبراطورية الرومانية وحلفائها من العرب المتنصرة ، فكان حقا سيف الله المسلول على الأعداء ، وكان هو ومن معه المهاجمون الأبطال وليسوا بالفرار، فهل يستطيع قائد في تاريخ

العالم ، أن يخبر بمثل هذه الحقيقة وهي في عالم الغيب ، فتحققها الأيام كما أخبر بها رسول الله القائد الأعظم ؟ كلا. كلا. لم حدث هذا في تاريخ العالم . ولن يحدث في مقبلات الأيام ؛ لأنه نور الوحي ، وعلم الله الذي لا يتخلف . وليس الوهم الذي يحتمل الصدق والكذب.

ثم لماذا عين الرسول القادة الثلاثة زيد قائلا فإن أصيب فجعفر ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة ؟ .. القائد الأعلى يعين دائما قائدا واحدا ، أما الرسول في غزوة مؤتة فقد عين استشهاد الأبطال الثلاثة ، قبل استشهادهم . فهل بعد هذا دليل علي صدق رسالة محمد- صلوات الله وسلامه عليه- وصدق فراسته ، وعظمة قيادته؟ ..أنه بطل أبطال العالم في كل عصور التاريخ دون شك ولا ريب ولا منازع.

ولم يفقد المسلمون في هذه المعركة الرهيبة سوي اثنى عشر رجلا لا غير. وهم ثلاثة آلاف أمام مائتين وعشرين ألفا من الفرسان المدججين ، بمختلف أنواع الأسلحة وأحدثها في عصرهم ، فأي بطولة أعظم من هذه البطولات ؟ وأي دليل على انتصار الإسلام في مقبلات الأيام علي أعظم قوي العالم أفضل من هذا الدليل ؟ ..

٢٨- فتح مكة :

نقضت قريش معاهدة الحديبية ، وتعاونت مع حلفائها من بني بكر علي خزاعة حلفاء الرسول ﷺ ، فهاجموا خزاعة ليلا وهم على ماء لهم بأسفل مكة يسمى الوتير ، وذلك لأخذ ثأر ثلاث من سادة بني بكر ، قتلتهم خزاعة قبيل الإسلام ، ولجأت خزاعة إلى داخل الحرم لتحتمي به من أعدائها ، ولكن بني بكر ومن عاونهم من قريش استمروا في العدوان عليهم وسفك دمائهم داخل الحرم ، حتي لجأت خزاعة إلى دار بديل بن ورقاء ودار مولى لهم يقال له – رافع – والمولى هو العبد المحرر.

(خزاعة تستنجد بالرسول القائد)

وأسرع عمرو بن سالم الخزاعي إلى رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه- يطلب نصرته على قريش وبني بكر حلفائها ، ويخبره بنقض قــريش لمعاهدة الحديبية ، فوقف على رسول الله وهو جالس كالقمر بــين أصــحابه النجوم في مسجده ، ثم قال تلك القصيدة المؤثرة :

يــا رب إنـــي ناشــد محمدا حلــق أبينــا وأبيه الاتلــدا
قد كنتم ولــدا وكنــا والــدا ثم أسلمنا فلــم ننــزع يــدا
فأنصر هداك الله نصرا اعتدا وادع عبــاد الله يأتــوا مددا
فيهم رسول الله قــد تجــردا أن سيم خسفا وجهــه تربدا
دفي فيلق كالبحر يجري مزبدا أن قريشا أخلفوك الموعــدا
ونقضــوا ميثاقــك المؤكــــدا وجعلوا لي في كداء رصدا
وزعموا أن لست أدعــوا أحدا وهــم أذل وأقــــل عــددا
هم بيتونا بالوتيــــر هجــــدا وقتلونـــا ركعـــا وسجـــــدا

ومعني قد كنتم ولدا وكنا والدا ، أنهم أخوال رســول الله ، أن أم عبــد مناف جد رسول الله الثالث من خزاعة. وكذلك أم جده الأعلى قصي مــنهم أيضا، فلما فرغ عمرو من شعره صاح رسول الله ﷺ : نصرت يا عمرو بن سالم . ثم رأى الرسول سحابا قد ملأ السماء الزرقاء بزهوره البيضاء فقــال مبشرا بالنصر : (إن هذه السحابة لتستهل - تمطر - بنصر خزاعة)

(الرسول الملهم يخبر بقدوم أبي سفيان بن حرب قبل قدومه)

وقال رسول الله بعد ذهاب عمرو بن سالم عائدا إلى بلده :

(كأنكم بأبي سيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد في مدة المعاهدة).

وصدق رسول الله. فقد خافت قريش من نقض المعاهدة. فأرسلت أبا سفيان إلي رسول الله ليؤكد بقاء المعاهدة. ويزيد في مدتها. وجاء أبو سفيان إلى المدينة ، ودخل على ابنته أم المؤمنين السيدة أم حبيبة - رضي الله عنها. ولم تكن رأته ورآها منذ سنوات طوال ، منذ هجرتها إلى الحبشة قبل هجرة رسول الله إلى المدينة بسنوات عديدة ، فها هي بضع عشرة سنة تمر علي آخر لقاء بالسيدة حبيبة مع والدها أبى سفيان بن حرب زعيم قريش. ومع هذه الأعوام الطوال ، لم يجد البشاشة من ابنته له ، فقد أراد الجلوس على فراش رسول الله فأسرعت بطيه ولم تمكنه من الجلوس فوقه ، فقال أبو سفيان متعجبا :

يا بنية ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟

بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس ، ولا أحبُّ أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ.

والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر ، ثم خرج غاضبا.

وكان هذا العمل العظيم من السيدة أم حبيبة ، بمنزلة السهم الدامي الذي اخترق أبا سفيان وكبرياءه معا.

(الرسول القائد يرد أبا سفيان خائبًا)

وجاء أبو سفيان يكسوه الخوف بردائه الأسود ، وتكسوه المهانة بردائها الأرجواني ، ووقف أمام رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه- وكلمه في خضوع وخشوع ووجيب قلب ، يطلب منه شد المعاهدة وتوكيدها ، وزيادة مدتها عن عشر سنوات ، فلم يرد عليه شيئا ، واخترق لبه وكبرياءه بسهم نافذ هو سهم الصمت ، والتجاهل لمسعاه ، فذهب إلى أبي بكر الصديق الصاحب الأول لرسول الله يطلب شفاعته عند رسول الله فقال له أبو بكر (ما

أنا بفاعل)، ثم أتى الفاروق عمر بن الخطاب الصاحب الثـاني لرسـول الله يطلب شفاعته عند رسول الله فقال له في تقريع وتوبيخ :

(أنا أشفع لكم إلي رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجدالا الذر لجاهدتكم به)، ثم جاء البطل الغالب الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يطلـب شفاعته ، وعند علي فاطمة بنت رسول الله رضي الله عنها ، وعندها حـسن بن علي ، علام يدب بين يديها ، فقال أبو سفيان في ضراعة واستعطاف.

يا علي أنك أقرب الناس إليَّ رحمًا ، وأني قد جئت فـي حاجـة فـلا أرجعن كما جئت خائبا. فأشفع لي إلي رسول الله. فقال علي : ويحك يا أبـا سفياذ والله لقد عزم رسول الله ﷺ علي أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، فألتفت أبو سفيان سيد قريش إلى السيدة فاطمة - رضي الله عنها - فقال لها متوسلا هل لك أن تأمري بنيك هذا - يشير إلى الحسن وهو صبي صغير - فيجيـر بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر .

فقالت له سيدة نساء الجنة الزهراء رضي الله عنها :

ما بلغ بني ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ

فقال أبو سفيان وهو كالغريق يتمنى التعلق ولو بقشة أو ريشة :

يا أبا الحسن أني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني.

والله ما أعلم لك شيئا ، ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين النـاس ثـم ألحق بأرضك.

أو ترى ذلك مغنيا عني شيئا ؟

لا والله ما أظنه ، ولكني لا أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في مسجد رسول الله فقال : أيها الناس ، أني أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره فانطلق إلى مكة .

فلما جاء قومه قالوا له :

ما وراءك ؟

جئت محمدا فكلمته ، فوالله ما رد علي شيئا ، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرا ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو ، ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم ، وقد أشار علي بأن أجير بين الناس ففعلت .

هل أجاز ذلك محمد ؟

لا .

ويلك والله ما زاد الرجل على أن لعب بك ، فما يغني عنا ما قلت .

لا والله ما وجدت غير ذلك .

الاستعداد لفتح مكة

أمر الرسول القائد أصحابه بالاستعداد لفتح الفتوح ، لفتح مكة أم القري ، ورفع يده إلي السماء داعيا ربه في ضراعة وخشوع :

اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها – واستجاب الله القاهر لدعاء نبيه – صلوات الله وسلامه عليه –.

فحينما أرسل حاطب بن بلتعة كتابا إلى قريش يخبرهم بغزو رسول الله أياهم ، وأعطاه لامرأة جعلته بين ضفائر شعرها ، على أن جعل لها حاطب أجرا أن أوصلته إلي قريش ، عندما فعل حاطب ذلك وسارت المرأة نزل الوحي من السماء يخبر رسول الله القائد بكتاب حاطب ومكانه من المرأة .

فبعث رسول الله علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ليدركا المرأة . ويعودا بالكتاب ، فأدركاها بالحليقة ، وعادا بالكتاب فدعا رسول الله القائد حاطبا فقال له : ما حملك علي هذا ؟

يا رسول الله إني والله لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ، ولكني كنت امرءا ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم

ولد وأهل فصانعتهم عليهم .

فقال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– :

يا رسول الله ، دعني فلأضربنَّ عنقه ، فإن الرجل قد نافق .

وما يدريك يا عمر .. لعل الله قد أطلع إلي أصحاب بدر فقال :
(أعلموا ما شئتم فقد غفرت لكم) صدقت يا رسول الله .
وفاضت عينا عمر بالدموع ، ونزل قول الله تعالى :
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ ﴾ (١ : الممتحنة)

* * * *

خطوات فتح مكة

أولا : تحرك الرسول القائد بعشرة آلاف من الأبطال لفتح الفتوح حتى نزل مر الظهران بالقرب من مكة.

ثانيا : أمر الرسول القائد عند حلول الليل بأن يشعل كل جنـدي مـن جنود المسلمين نارا ، لإلقاء الرعب في قلوب قريش بكثـرة عـدد الجـيش الغازي لهم ، وقد نجحت هذه الخطة البارعة في إلقاء الرعب في قلب أبـي سفيان بن حرب قائد قريش الذي خرج تحسس أخبار الرسول خارج مكـة. وحينما علم أبو سفيان من العباس عم رسول الله الذي كان يركب بغلة رسول الله ، بأن هذا جيش رسول الله جاء فتح مكة ، أسقط في يـد أبـي سـفيان. واستسلم للعباس الذي أخذه معه إلى رسول الله فأعلن إسلامه ، وأمن علـى نفسه.

ثالثا : أمر الرسول القائد عمه العباس أن يأخذ أبا سفيان إلـى مكـان بارز من أحد الجبال أشبه بالشرفة ، ليستعرض أمامه جيش المسلمين العظيم القوة والعدد والعدة ، حتي يحذر قومه من عاقبة مقاومة هذا الجيش.

رابعا : أرضى الرسول القائد نزعة حب الفخر والرئاسة في أبي سفيان بأن جعل من دخل داره فهو آمن ، بناء علي نصيحة عمه العباس – رضي الله عنه– وهذه أشارة ذكية ، بأن إسلام أبي سفيان سيزيده جاها ومكانة ، ولن ينقص من مكانته حتى يثبت إيمانه ، ويقوى يقينه.

خامسا : استسلمت قريش لجيوش الرسول ﷺ بعد مقاومة طفيفة من عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ومن معهما ، وقد قام سيف الله خالد بن الوليد بالقضاء على هذه المقاومة وتشتيت المقاومين.

سادسا : دخلت جيوش رسول الله مكة من جهاتها الأربع ، ووضع رسول الله رأسه على مقدمة رحله ساجدا شكرا لله على هذا النصر العظيم . وتواضعا لله – سبحانه وتعالى– فهل عرف العالم قائدا بمثل هذا التواضع في كل تاريخه؟

سابعا : لو كان الفاتح لمكة رجلا آخر غير محمد رسول الله ، لجعل من دماء أهلها أنهارا وبحارا تخوض فيها خيول المسلمين بعد مواقف قريش ضد الإسلام والرسول والمسلمين.

فقريش هي التي كذبت الرسول وآذته بالقول والفعل ، وهي التي حاصرته مع بني هاشم والمطلب والمسلمين في شعب أبي طالب ثلاث سنوات ، لا يبيعون لهم ولا يبتاعون منهم ،ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم حتى أكل المسلمون وبنو هشام والمطلب أوراق الشجر والجلد من الجوع.

وقريش هي التى عذبت ضعفاء المسلمين أشد التعذيب ، وشردت المسلمين من ديارهم إلى الحبشة. ثم إلى المدينة ، واستولت على ديارهم وأموالهم في مكة.

وقريش هي التي حاربت الرسول في بدر وأحد والخندق. وهي التي

كسرت رباعيته في أحد ، وأصابته بالجراح في وجهه ، وكانت حريصة على قتله وقتل كبار أصحابه ، وكانت تريد في معركة الخندق القضاء عليه وعلى الإسلام بحشد قوى غطفان واليهود معها في تلك الغزوة.

وقريش هي التي منعت الرسول من زيارة البيت الحرام في عام الحديبية ، ولكن ها هي قريش ذليلة أمام القائد العظيم المنتصر ، حياتهم معلقة بكلمة واحدة تصدر من فمه إلى سيوف جنوده الأبطال الأشاوس ، فماذا كان موقف الرسول الرحيم من هؤلاء الأعداء؟ .. قال لهم :

ماذا ترون أنّي فاعل بكم يا معشر قريش؟

خيرا فأنت أخ كريم وابن أخ كريم .

اذهبوا فأنتم الطلقاء.

لقد عفا الرسول القائد عن أعدائه أعظم عفو عرفته الدنيا من فاتح ضد ألد أعدائه ، فهل هناك علي ظهر الأرض قائد مثل محمد عرفته الدنيا في كل تاريخها إلي قيام الساعة ، كلا . وألف كلا. إنّه بطل الحرب والسلام ، رسول الرحمة ، الذي أرسله الله رحمة للعالمين ، رسول السلام الذي يكره سفك دماء حتى ألد أعدائه ، الذي جعل العفو عن أعدائه عقوبة لهم على معاداته ، وجميلا في أعناقهم إلي آخر لحظات حياتهم علي الأرض.

* * * *

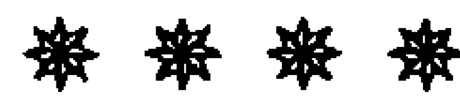
قيمة المرأة في الإسلام

ومكانة المرأة في الإسلام عظيمة ، وهي متساوية مع الرجل في كل الحقوق وقد أعطاها الإسلام حقوق الممارسة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية كالرجل تماما فقد بايع رسول الله النساء بعد فتح مكة كما بايع الرجال ، وفي هذا إثبات لشخصية المرأة المستقلة وتأكيد لمكانتها في المجتمع الإسلامي ، وهذان رجلان من بني مخزوم أقارب لزوج السيدة

أم هانـــئ –رضي الله عنها – بنت أبي طالب عم رسول الله – صلوات الله وسلامه– ويفران إليها يحتميان بها من سيف شقيقها البطل الغالب علي بـــن أبي طالب – كرم الله وجهه– ويقسم عليٌّ على قتلهما ، فتذهب إلى الرســـول القائد ، فتجده يغتسل من إناء فيه أثر العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوبـــه ، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ، ثم تلى صلاة الضحى ثمـــاني ركعـــات ، وأقبل عليها قائلا في بشاشة وهشاشة – مرحبا وأهلا يا أم هانئ ما جاء بك ؟

فأخبرته بإجارتها للرجلين وإصرار عليٍّ على قتلهما ، فقال لها :

(قد أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت فلا يقتلهما علي). أليست هذه إجازة من رسول الله ﷺ لممارسة المراة المسلمة لحقوقها السياسية ..



(تحطيم الرسول للأصنام)

وحينما دخل الرسول الأعظم إلى البيت الحرام ، أخذ يطـــوف حـــول الكعبة وهو راكب ناقته ، وأخذ يشير إلـــى الأصـــنام التـــي حـــول الكعبـــة المربوطة إليها بالرصاص بعصا معقوفة في يده وهو يقرأ قول الله– تعالى–:

{وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا }

(٨١ :الإسراء)

فخرت الأصنام على ظهورها ووجوهها معجزة لرسول الله ، وهيبة من نور التوحيد الذي غمر أول بيت لله علي ظهر الأرض.

(الرسول يدعو للإخاء والمساواة بين البشر)

ودخل رسول الله الكعبة فصلى بها شكرا لله على نصره لدينه ولرسوله ، ثم أزال ما فيها من صور وتماثيل ، وبعد ذلك وقف علي بابها قائلا للناس الذين وقفوا أمامه في خضوع وخشوع ، هؤلاء الذين كانوا ألد أعدائه بالأمس قال رسول الله داعيا إلى الإخاء والمساواة وترك أخلاق الجاهلية :

أيها الناس لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وأدم من تراب ، قال تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

(١٣:الحجرات)

هل جاءت الثورة الفرنسية بالحرية والإخاء والمساواة حقا ؟. كلا . لقد جاءت بشعارات براقة ليس لها أي واقع فعلي ، بل جاءت بالأحقاد ، وسفك الدماء والفوضى ، وتسليط الفقراء على الأغنياء بما في نفوسهم من الحسد ومركبات النقص ، وتسليط العامة على الطبقات العالية للصعود فوق أجسادهم إلى مراتب الوحوش الضارية القاسية القلب ، الغليظة الإحساس. التي يطربها أنين المعذبين ، ويسكر نفوسها الدم الأحمر القاني المسفوك في شوارع باريس ، وبقية مدن فرنسا ، ويطربها التعصب القومي لفرنسا.

ولكن هاهو الإسلام يحمله الرسول الأعظم إلى البشرية جمعاء ، يدعوها إلى توحيد الله وحده ، وعبادة ذاته المقدسة.

ويدعوها للحرية التي تشمل الجسد والنفس والروح والعقل والقلب ، بأن

لا يعبد الإنسان سوى الله ، ولا يطلب العون ألا منه ، ولا يدعو إلا إياه.

وأن تترك البشرية التعصب بكل ألوانه ، ويذكر البشر أنهم إخــوة لأب واحد هو آدم وأم واحدة هي حواء.

وأن أباهم خلق من تراب وإلى التراب يعودون ، فلا غرور ولا كبــر ولا استعلاء بالجاه أو المال أو النفوذ والقوة.

وأن الله تعالى هو الذي جعل البشر شعوبا وقبائل ، ليتعارفوا ويتعاونوا ولا تكون بينهم عصبية عرقية فهم جميعا من أصل واحد ، وأفضلهم عند الله هو أشدهم طاعة لله ، وخوفا من عقابه .

فها هو رسول الله يقول لحلفائه خزاعة ، في حزم ، وقد قتلوا رجــلا من هذيل كان قد قتل رجلا من أبطالهم يقال له أحمر في الجاهلية قال رسول الله (يا معشر خزاعة أرفعوا أيديكم عن القتل ، فقد كثر القتل أن نفع ، لقــد قتلتم قتيلا لأدفعن ديته).

مع أن القتيل كان مشركا ، والقتلة مسلمون ، ولكن رســول الرحمــة يرفض سفك الدماء – وهو الذي حقن دماء أعدائه – يدفع دية القتيل ، ويشدد في النهي عن الانتقام ، ويدعو للعفو والتسامح ، ورسول الله هو الذي نــزع اللواء من يد سعد بن عبادة زعيم الخزرج حينما بلغه عنه تهديــده لقــريش بسفك دمائها والانتقام منها قائلا :(اليوم يوم الملحمة ،اليوم تستحل الحرمة).

فدفع الرسول القائد اللواء إلى علي بن أبي طالب ، وقال : (اليوم يوم المرحمة ، اليوم تعظم الحرمة) ، من هم هؤلاء الذين يخاف عليهم رســول الله أن تسفك الأنصار دماءهم ؟! .. إنهم أشد الناس عداوة لرسول الله الــذين قاتلوه ، وآذوه ، وآذوا أصحابه ، وأخرجوه وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم ومراتع صباهم وشبابهم ، أنهم الذين حرصوا على قتله والقضاء علي دينــه وأصحابه .

فماذا كان الموقف لو كان الداخل مكة هو { روبسبير ودانتون } وزعماء الثورة الفرنسية ، الذين جعلوا الدماء أنهارا في فرنسا ؟! .. هل هؤلاء القساة القلوب هم حقا دعاة الإخاء والمساواة والحرية ؟! .. أم الرسول الأعظم وبطل الأبطال محمد رسول الإسلام هو الذي جاء حقا بالحرية والإخاء والمساواة والتوحيد ؟

نعم إنّه رسول الإسلام الذي جاء بالرحمة والإخاء والمساواة والحرية. وقبل هذا التوحيد لله رب الكون كله ، والمسيطر عليه وحده ، والذي لا نهاية لقوته ، والذي إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون.

وها هو رسول الإسلام ﷺ ينهى سيف الله المسلول خالد بن الوليد عن دماء قريش ، وحينما علم رسول الله بقتل خالد بن الوليد قائد أحدى فرق جيش الفتح لبعض بني جذيمة من كنانة وهم مشركون ، وكان قد أرسله إليهم يدعوهم إلي الإسلام دون قتال ، فلما علم الرسول القائد بما فعل خالد ، رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم أني أبرأ إليك مما صنع خالد ابن الوليد ، وأرسل عليا - كرم الله وجهه- بالأموال لدفع ديات القتل .

ولم يأمر الرسول القائد العامة بقتل نبلاء قريش ، والفقراء بسلب أموال الأغنياء ، بل عفا الرسول القائد عن زعماء قريش الذين طالما عادوه وحاربوه ، فعفا عن أبي سفيان بن حرب زعيم قريش ، وعن صفوان بن أمية زعيم بني جمح ، وعن عكرمة بن أبي جهل زعيم بني مخزوم .

وكان صفوان وعكرمة قد أرادا الهرب إلى اليمن خوفا على نفسيهما من رسول الله ، فعفا عنهما- صلوات الله وسلامه عليه-.

فهل عفت الثورة الفرنسية عن أحد من أعدائها ؟ بل هل عفت عن دماء زعمائها هي ؟! .. كلا. كلا لقد سفكت دماء أعدائها ، وسفك أبناؤها دماء بعضهم بعضا.

وعفا الرسول عن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان بن حرب ، التي

مثلت بجسد عمه العظيم حمزة أسد الله ، وأسد رسوله -رضي الله عنه-.

وها هي المساواة العملية بين المسلمين ، تتجلى في دخول الرسول الكعبة ومعه بلال بن رباح ، العبد الحبشي الذي جعله رسول الله مؤذنا له. يدعو المسلمين إلى الصلاة في أوقاتها ، وهو الذي أمره بالصعود فوق ظهر الكعبة للأذان ، فغاظ هذا بعض زعماء قريش ، ولكنه الإسلام ، دين المساواة ، والحرية والإخاء ، الإخاء : الذي جعل رسول الإسلام يؤاخي بين عمه حمزة سيد الشهداء وعبده السابق الشهيد زيد بن حارثة ، الذي حرره رسول الله من الرق ، وولاه قيادة جيش مؤتة ، على أبطال المسلمين وزعمائهم ، فسقط شهيدا في هذه الغزوة .

وهي المساواة التي جعلت رسول الله يقول (لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، والعمل الصالح).

وهي المساواة التي جعلت رسول الله يزوج زيد بن حارثة عبده السابق ابنة عمته سليلة الحسب والنسب زينب بنت جحش - رضي الله عنها- وهي المساواة التي جعلت رسول الله يتزوج زينب بأمر الله بعد طلاق زيد لها.

وهي الحرية التي جعلت صفوان بن أمية يقول وهو القائد المهزوم للقائد المنتصر رسول الله ، حينما سأله إعارة المسلمين بعض دروعه الحربية: فقال له صفوان : أغضبا يا محمد ؟ فقال القائد المنتصر رسول الله.

كلا ، بل عارية مردودة مضمونة يا صفوان .

إنها الحرية التي جعلت حارث بن هشام يقول لعتاب بن أسيد ، ولأبي سفيان بن حرب والرسول المنتصر في داخل الكعبة ، وهم جالسون في فناء المسجد الحرام ، (لو أعلم أنه رسول الله لآمنت به).

فيرد عليه أبو سفيان قائلا : لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى . ويقول عتاب بن أسيد ، لو رأى أسيد أذان بلال فوق الكعبة لغاظه ذلك .

فخرج عليهم رسول الله ﷺ من داخل الكعبة ، فقال علمت الذي قلتم وأخبرهم بما قاله كل واحد منهم ، فقال عتاب والحارث والله ما كان معنا أحد فنقول أخبرك بذلك ، نشهد أنك رسول الله ، وأسلمنا في تلك اللحظة ، بعد هذه المعجزة الآلهية الظاهرة .

لم يأمر الرسول بضرب عنقيهما ، كلا بل أخبرهما بما قالا في طلاقة وجه في عتاب رقيق ؛ فأعلنا إسلامهما بحريتهما الكاملة ، إنها الحرية التي جعلت هند بنت عتبة ، تقول لرسول الله ، وهو يبايع النساء علي المحافظة علي أولادهن : (ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا يا رسول الله) تشير إلي مقتل ابنها في بدر. فقال الرسول مبتسما وأنت هند ؟! ..

قالت : نعم يا رسول الله ، فأعفو فداك أبي وأمي . قال لها :

قد عفوت ، إنها المحرضة على قتل عمه أحب الناس إليه ، والممثلة بجسده ، والتي لاكت كبده . وها هي تعرض به ، وهو القائد المنتصر الذي عفا عنها ، فما زاده ذلك إلا عفوا ، وطلاقة وجه .

هل عرف العالم مثل هذه الحرية والمساواة والإخاء التي جاء بها الإسلام ، وحققها عمليا في دولته رسول الله .

إنه محمد بطل الحرب والسلام ، قدوة الدنيا ، والبشر الذي بلغ الكمال فكان سراج العالم ، ونور الأرواح .

٢٩- غزوة حنين

علم رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه- باجتماع قبائل هوزان وثقيف لحرية بقيادة مالك بن عوف النصري ، وذلك بعد فتحه مكة في العام الثامن من الهجرة ، وهذه القبائل هي : ثقيف كلها ، ونصر وجشم كلها. وسعد بن بكر وبعض بني هلال ، وهم جميعا من قبائل هوزان ، وغاب عن هذه الحرب من قبائل هوزان كعب وكلاب .

وقائع هذه المعركة :

١-**خرج مالك بن عوف النصري بقواته** . وأخرج معه الأموال وكذلك الأطفال والنساء ، فاعترض فارس جشم القديم ، والشيخ الكبير دريد بن الصمة على مالك قائلا :

يا مالك إنك قد أصبحت الآن رئيس قومك ، وإن هذا اليوم له ما بعده من الأيام ! .. فما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، وثقاء الشاء ؟! ... سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم .

ولم ذاك ؟

أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليبذل حياته دفاعا عنهم فنحقق النصر على محمد ، وعلى المسلمين.

قالَ : ثكلتك أمك أيها الغبي ، راعي ضأن والله ! أيها الأحمق ، وهل يرد النهزم شيءٌ ، إن كان النصر لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت الهزيمة عليك ، فضحك محمد في أهلك ومالك .

هذا ما رأيته ولن أحول عنه .

ويحك ما فعلت كعب وكلاب ؟

لم يحضر معنا منهم أحد.

غاب عنكم الحد والجد ، ولو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب ، ولوددت والله لو أنكم فعلتم مثل ما فعلت كعب وكلاب ، ولكن أخبروني من معكم من هوزان ؟

عمرو بن عامر وعوف بن عامر.

إنهما الضعيفان من عامر ، لا ينفعان ولا يضران ، يا مالك إنك لم تصنع بتقديم جماعة هوزان إلي نحور الخيل شيئا ، ارجع إلى قرب بلاد هوزان ، حيث المنعة وبقية قومك ، واترك أموال هوزان ونساءها وأطفالها هناك.

ثم حارب المسلمين علي ظهور الخيل ، فإن كان النصر لك ، لحق بلك من وراءك من قومك ، وإن كانت العركة عليك ، أحرزت أهلك ومالك .

والله لا أفعل ذلك ، إنك يا دريد قد كبرت ، وفسد عقلك ، والله لتعطينني يا معشر هوازن أو لاتكئ على سيفي حتي يخرج من ظهري .

أطعناك يا مالك ، فقال دريد في أسى وأسف :

هذا يوم لم أشهده ولم يفتني ، أنا معكم يا معشر هوزان حتي الموت . فلا أستطيع أن أتخلى عن قومي ، وأنا الذي قدت كتائب هوزان من نصر إلى نصر ، ألا ليت الشباب الضائع يعود ، وقواي الغاربة ، تعود إلى جسدي الضعيف الواهن المنحل ، ولكن قد حانت النهاية ، فليكن موتي على شفرات السيوف ، وأسنة الرماح ، بعد أن خالفني قومي لأول مرة في حياتي ، فلا حياة لمن لا يطاع في قومه .

فصاح مالك في قومه :

إذا رأيتم المسلمين فاكسروا جفون سيوفكم ، ثم شدوا شدة رجل واحد .

٢- وأتى مالك بن عوف رجاله الذين أرسلهم كعيون له على المسلمين . وقد جف ريقهم ، وغاب الدم من شرايينهم ، وانحلت قوي أبدانهم ، وتملكتهم الرعشة ، فهم كريشة بين أحضان العاصفة ، قال لهم مالك متعجبا من أحوالهم : ويلكم ! ما شأنكم ؟! ..

رأينا ما قذف بسيول الرعب في قلوبنا ، رأينا رجالا بيضا على خيول سوداء بين السماء والأرض فوق جيش محمد ، فأصابنا ما ترى يا مالك . فالنجاء ، النجاء ، فالمسلمون لا يقف أمامهم شيء ، وإله محمد يرسل له القوى والنصر من السماء .

أخزاكم الله من جبناء ، سوف ترون المسلمين صرعى بسيفي هذا ، ولن تردني قوة عن حرب محمد ، ولو كانت قوة إلهه الذي في السماء.

٣- **وجاء عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي فأخبر رسول الله** - صلوات الله وسلامه عليه- بما شاهد وسمع في معسكر الأعداء ، بعد أن أندس بينهم بأمر للرسول القائد ﷺ ، فأرسل الرسول القائد إلى كبار الصحابة فأخبرهم بما أجمع عليه أمر الأعداء من قبائل هوزان وثقيف ، فقال الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كذب ابن أبي حدرد .

فقال ابن أبي حدرد:

إن كذبتني الآن يا عمر ، فقد كذبت قبل الآن بالحق ، وكذبت من هو خير مني ؛ فقال عمر :

يا رسول الله ألا تسمع ما يقول ابن أبي حدرد ؟

فقال رسول الله ﷺ : قد كنت ضالا فهداك الله يا عمر.

قال عمر : الحمد لله على هدايته لي .

ثم خرج الرسول القائد في جيش كبير ، هو جيش الفتح ومعه ألفان من أهل مكة ، وجعل الرسول القائد عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن عبد شمس أميرا علي مكة ، فقال المسلمون حينما رأوا كثرتهم (لن نغلب اليوم من قلة).

٤- **كان الأعداء قد سبقوا إلى وادي حنين** . وكمنوا للمسلمين في شعابه ومضايقه ، وكهوفه ، وقد استعدوا تمام الاستعداد لمفاجأة جيش المسلمين بالهجوم المباغت .

٥- **وزحف جيش المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ** على وادي حنين في ظلمة الفجر ، كما يسيل النهار علي الليل ، فيتراجع الليل أمامه ، لتشرق الشمس الذهبية موجهة الضربة القاتلة إلي أعماق الليل ، ناشرة ذهبها الوهاج علي الكون فتشيع فيه الحركة ، ويخلع عنه ثوب الخمول ، وسكينة النوم . وتشيع البهجة بين المخلوقات ، وتغرد الطيور ، وتتراقص الزهور ، ويطير الندي الفضي من فوق خدود الورود ، وتبتسم السماء ذات الوشاح الأزرق الجميل ، وأيدي الشمس الذهبية تداعبها في شوق ولهفة وهيام ، وانحدر

المسلمون في الوادي كانحدار المياه مكتسحه شواطئ الأنهار .

ولكن فجأة طنت السهام كالذباب ، ولدغت المسلمين كالنحل والزنابير. وشدت على المسلمين كتائب الأعداء في اندفاع الصخور من عاليات الجبال. فأخذت المفاجأة الرهيبة معها قوة المسلمين ، فولوا الأدبار ، وأسرعوا يريدون الفرار ، وتركوا رسول الله يواجه مع قلة معه هول الأخطار ، ويصمد في رسوخ الجبال أمام عاتيات الأمطار.

وثبت مع رسول الله أعظم الأبطال نخبة من أبطال المسلمين ، من أهل بيته والمهاجرين والأنصار ، منهم : أبو بكر ، وعمر ، وعلي بن أبي طالب البطل الغالب ، والعباس بن عبد المطلب عم الرسول ، البطل الكريم ، وابنه الفضل بن العباس ، ابن عم رسول الله ، وأبو سفيان بن الحارث ، ابن عم رسول الله . وابنه ربيعة ، وأسامة بن زيد بن حارثة ، وأخوه لأمه أيمن بن عبيد. الذي استشهد وهو يدافع عن رسول الله .

٦-**واندفع الرسول البطل الأعظم على بغلته البيضاء نحو الأعداء.** وهو يقول (أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب).

وأهل بيته يأخذون بركاب بغلته ، ويجعلون حياتهم فداء لحياته ، ومعهم أبطال المسلمين .

٧- **وساعد علي الفرار والهزيمة من دخل** في الإسلام حديثا من أهل مكة ، ومن بقي علي شركه منهم ، فقد بقيت الأحقاد في قلوبهم مع عفو رسول الله عنهم بعد فتح مكة ، وهو الذى كان يستطيع أبادتهم جميعا بكلمة واحدة منه ، وهو الذى صبر عليهم ثلاث عشرة سنة في مكة ، يدعوهم إلى توحيد الله والإسلام ونبذ عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، وهم يوجهون إليه ، وإلى أصحابه أشد ألوان الإهانة والنكال والأذى والسباب ، فيقول لأصحابه الذين يريدون رد العدوان (اصبروا فإني لم أؤمر بقتال بعد)، ونصبوا له المعارك والمؤامرات أيضا بعد أن هاجر مع أصحابه إلى

المدينة وتركوا لهم مكة ، فها هو أبو سفيان بن حرب الذى أسلم حديثا يقول في شماتة عن هزيمة المسلمين وفرارهم : (لا تنتهى هزيمتهم دون البحر). ويقول كلدة بن الحنبل وهو مشرك (ألا بطل السحر اليوم) فيرد عليه أخوه من أمه صفوان بن أمية المشرك الذى عفا عنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وتركه يفكر في الإسلام خلال شهرين ، يقول صفوان الذى قتل أبوه أمية بن خلف ، وكذلك أخوه في غزوة بدر: اسكت فض الله فاك فوالله لأن يربنى رجل من هوازن) يعنى اسكت أسقط الله أسنانك ، فوالله لأن أكون عبدا لرجل من قريش أحب إلى الله من أن أكون عبدا لرجل من هوازن ، فصفوان هنا يذكر العصبية القبلية وحدها ولا يدافع عن رسول الله للحق الذى جاء به .

وحاول شيبة بن عثمان بن أبى طلحة بن بنى عبد الدار من قريش قتل رسول الله في هذا الموقف العصيب ، ليأخذ بثأر أبيه الذى قتل في غزوة أحد ، فاستدار خلف رسول الله ﷺ ليقتله ، فأرسل الله القوى الحامى لرسول الله على فؤاده سيولا من الخوف والرعب ، فلم يستطع رفع يده بسيفه على رسول الله ، وأيقن بحماية الله له.

٨- **النصر الأعظم :** وطلب رسول الله ﷺ من عمه العباس أن ينادى بصوته القوى الشبيه بالرعد (يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب شجرة الرضوان)، وكان العباس فارع الطول ضخم الجسم فرددت الجبال والأودية نداءه ، فأقبل الأنصار والمهاجرون نحو رسول الله ﷺ وهم يصيحون (لبيك يا رسول الله)(لبيك يا رسول الله)، وكان البطل منهم حينما يلوي عنق ناقته نحو رسول الله ، فلا يستطيع ذلك ، يقذف بنفسه من فوق ظهر ناقته ، حاملا ترسه ودرعه وسيفه ومندفعا كالعاصفة نحو الأعداء ، وخلص مائة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ إنهم أبطال الأوس والخزرج ، إنهم رجال الحرب وأبطالها ، لهم صبر الجبال أمام نيرانها ، وصاح الناس ، يا للأنصار ، ياللخزرج ، وتهاوت سيوف الأنصار كالصواعق فوق أعناق

الأعداء ، وكسيول البحار فوق الشاطئ الضعيف ، تكتسح أمامها كل شيء ، ونظر الرسول القائد إلى أبطال المسلمين وهم يحصدون رءوس الأعداء كما يحصد منجل الفلاح أعواد القمح الصفراء في الحقـل، فقـال (الآن حمـى الوطيس) أي فارت نيران موقد الحرب.

٩- **المرأة المسلمة تشارك في المعارك** : ونظر الرسول القائد حوله ، فرأى أم سليم بنت ملحان واسمها مليكة مع زوجها أبى طلحة تقاتل الأعداء ، وهي حامل بابنها عبد الله بن أبى طلحة ، وقد تحزمت ببـرد لهـا ، فقـال الرسول لها مشجعا :

- أم سليم ؟

- نعم يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، يا رسول الله أقتل هـؤلاء الـذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك ، فأنهم لذلك أهل .

أو يكفي الله يا أم سليم .

فهذه هي المرأة المسلمة تقاتل مع رسول الله في غزوة حيني بعد نـزول آيات الحجاب بأعوام ، ولم يقل لها رسول الله القتال لا شأن لك به بل الزمـي بيتك ؛ لأن المرأة نصف المجتمع ، وهي معلمة الأجيال ، وشريكة الرجل في المصير.

فهل يعود الجهلاء إلي صوابهم ، ويكفون عـن حرمـان المـرأة مـن المشاركة في أمور المجتمع ، بحجة أنها خلقت متاعا للرجل في البيت فقـط . وهل يتعلم النساء المشاركة الحقيقية في مجالات تقوية المجتمـع الإسـلامي. ويمتنعن عن المشاركة في أضعافه وانهياره ، بسلوك سبيل أعدائـه ، وجعـل أجسادهن المتبرجة شركا لقوى وعزم أبنائه ؟! ..

١٠- **الرسول يؤجج حماس أبطال المسلمين** : وأراد الرسول القائد أن يرفع من أمواج الحماس العارم في صدور أصحابه فقال (من قتل قتيلا فلـه سلبه).

فاندفع أبطال المسلمين كالريح العاصفة تدفع أمامهـا صـواعق مـن النيران نحو غابة كثيفة الأشجار ، مليئة بالأوراق والأعشاب الجافة بجـرارة شمس السماء اللاهبة .

وكان البطل أبو طلحة يقتل الأعداء كالجزار وسط جماعة الخـراف . حتي استلب وحده عشرين رجلا من الأعداء .

١١- الملائكة تشارك في القتال : ورأي جبير بن مطعم عندما اشتدت نيران المعركة ، سحابا أسود كالكساء أقبل من السماء حتـي سـقط بـين المسلمين وبين أعدائهم ، ثم تحول السحاب الأسود الذي سقط إلي جيوش من النمل الأسود ملأ الوادي ، وهاجم الأعداء وخيولهم ، فولت هوزان وثقيـف الأدبار ، لقد هاجمهم جيش من الملائكة الكرام ، تشكل في صورة نمل أسود فألحق بهم الهلاك والدمار.

١٢- وفر قائد الأعداء مالك بن عوف مع بعض رجاله إلي الطـائف. وفر بعض الأعداء إلي نخلة ، وفر بعضهم إلى أوطاس ، وتبعت خيل رسول الله المنهزمين ، وعليها أبطال الإسلام ، كالريح حينما تطارد أوراق الأشجار الذابلة ببرد الخريف والشتاء ، فأدرك ربيعة بن رفيع دريد بن الصمة الفارس العجوز. فقال له دريد : ماذا تريد بي ؟

قَالَ : أقتلك.

ومن أنت ؟

أنا ربيعة بن رفيع السلمي ، وكان ربيعة غلاما حدثا.

أضرب فأنا أمامك.

وضربه ربيعة بسيفه ، فلم يقتله ، فقال له دريد :

يا غلام بئس ما سلحتك أمك ، خذ سيفي من مؤخر رحلي ، ثم أضربني به وأرفع عن العظام وأخفض عن الدماغ ، فإني كنت كذلك أضرب الرجال ، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها بأنك قد قتلت دريد بن الصمة ، فرب والله يوم قد أعتقت أمهات لك ثلاثا.

فلما قتله ربيعة وجد فخذيه كالحديد من ركوب الخيل أعراء ، وأخبرته أمه بصدقه فيما قال له ، فما أعظم هذا البطل ، وما أسوأ موته على الشرك ليكون وقودا للنيران .

١٣- **النصر الحاسم للمسلمين** : وتم النصر الحاسم للرسول القائد وللمسلمين ، وكان رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – رأى امرأة مقتولة ، قتلها سيف الله المسلول خالد بن الوليد ﷺ أثناء المعركة فقال رسول الله العظيم لجنوده الأبطال : (لا تقتلوا امرأة ولا وليدا ولا أجيرا) فهل عرف العالم قبل رسول الله قائدا يأمر جنوده بحفظ دماء النساء والأطفال والأجراء الذين يسعون على أرزاقهم ؟..

كلا. لم يعرف العالم قبل محمد رسول الله مثل هذا القائد النبيل الرحيم وتم للمسلمين حصار الطائف بعد أن هرب إليها الفارون من الهزيمة.

١٤- **عطف رسول الله علي أخته الشيماء** : كان بين الأسيرات الشيماء بنت الحارث بن عبد العزي وبنت السيدة حليمة السعدية ، أخت رسول الله من الرضاع ، التي جاءوا بها إلي الرسول القائد فقالت له :

يا رسول الله إني أختك من الرضاعة ، فأنا بنت الحارث وحليمة .

وما علامة ذلك ؟

عضة عضضتينها في ظهري وأنا متوركتك

صدقت يا أختاه رحمك الله .

وهش لها الرسول الرحيم وبش ، وبسط لها رداءه فأجلسها عليه تكريما لها. وتذكر أيام الطفولة الرائعة مع أخوته من الرضاع في بادية بني سعد الصفراء المنبسطة تحت السماء الزرقاء ، وقال لأخته الغالية في حنان غامر :

يا أختاه أن أحببت تقيمي عندي محبة مكرمة ، وإن أحببت أعطيك ما تقر به عينك من صلتي لك ، ثم رددتك مكرمة إلى أهلك .

بل تعطيني صلتك يا رسول الله وتعيدني مكرمة إلى قومي.

لك ما تحبين يا أختاه يرحمك الله .

وأكرمها رسول الله غاية الإكرام ، ورددها إلى قومها في تكريم وإنعام وسلام.

١٥- **فك الحصار عن الطائف** : بعد أن حاصر رسول الله وجيشه الطائف بضعا وعشرين ليلة ، ورمي أهلها بالمنجنيق ورسول الله أول من استخدم في الإسلام سلاح المنجنيق ضد أعدائه واستخدمه ضد الطائف ، لقد انتقم الله سبحانه وتعالى من أهل الطائف ، هؤلاء قساة القلوب الذين رموه بالأحجار وقذفوه بالطوب ، حينما جاءهم منذ سنوات مع مولاه زيد بن حارثة يدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد وترك عبادة الأصنام ونصرته حتي يبلغ رسالة الله إلي العالم .

ولكنهم سلطوا عليه سفهاءهم وعبيدهم وصبيانهم يسبونه بأقذع السباب. ويقذفونه بالأحجار والطوب ، وسالت دماؤه الطاهرة وكان زيد - رضي الله عنه- يجعل من جسده وقاية له ويفديه بكيانه.

فأنتم الآن يا أهل الطائف كالأرانب المذعورة ، يحيط بكم جند الله من الأنصار والمهاجرين إحاطة السوار بالمعصم يضربونكم بأحجار المنجنيق الضخمة المتساقطة عليكم في صوت الرعود ، وقعقعة الجبال .

وهاهم المسلمون يقطعون أعنابكم وحدائقكم التي تشمخون بها علي العرب. وتملأ قلوبكم بالقسوة والكبرياء والاستعلاء ، وهاهم عبيدكم يهربون منكم إلى رسول الله القائد يعلنون أمامه إسلامهم ، فيعلن لهم أن الإسلام قد حررهم من عبودية غير الله ، فهم الآن عتقاء الله والرسول والإسلام.

وهؤلاء العبيد الذين جاءهم الرسول بالحرية والسعادة منذ سنوات قبل الهجرة ، فقذفوه بالأحجار مرضاة لأسيادهم ، هم الآن يتساقطون بالحبال من فوق أسوار الطائف المحاصرة ليحصلوا علي حريتهم وسعادتهم وعزتهم وحقوقهم وآدميتهم بالإسلام من رسول الإسلام .

وزحف بعض أبطال المسلمين تحت دبابة من الخشب والجلد والحديد إلى جدار الطائف لينقبوه. فأسقطت عليهم ثقيف قطع الحديد المحماة بالنار. ومشاعل النيران ، فخرجوا من تحت الدبابة فرماهم أهل الطائف بالسهام فاستشهد بعض هؤلاء الأبطال ، ورأى رسول الله رؤيا فقال لصاحبه الأول الصديق :

يا أبا بكر إني رأيت أني أهديت لي قصعة مملوءة زبدا فنقرها ديك فهراق ما فيها ما أظن أن تدرك يا رسول الله من أهل الطائف في هذه الغزوة ما تريد ، وأنا لا أدري ذلك يا أبا بكر ، فقال عمر بن الخطاب :

ألم يأذن الله لك في أهل الطائف يا رسول الله ؟

لا. لم يؤذن لي فيهم يا عمر.

أفلا أنادي في الناس بالرحيل يا رسول الله .

قال : بلى .

وهكذا فك حصار الطائف ، فردت الحياة في أهلها ، وتحــرك جــيش المسلمين العظيم تجاه مكة.

١٦- توزيع رسول الله غنائم حنين في الجعرانــة : وقبــل وصــول الرسول القائد إلى الجعرانة قال له أحد أصحابه :

- يا رسول الله ادع الله ليهلك ثقيفا ، فقالَ ﷺ : اللهم أهد ثقيفا وأت بهم.

فهل عرف العالم قائدا مستجاب الدعاء مثل رسول الله ، يدعو لأعدائه بالهداية ، ولا يدعو بالهلاك ، كلا ، كلا.

وكان مع رسول الله من الغنائم ستة آلاف من الذراري والنساء ، ومن الأبل والشياه مالا يسهل عدده ، وقام رسول الله ﷺ القائد بتوزيع الغنائم علي جنوده الشجعان ، فأعطى مائة بعير لأبي سفيان بن حرب ، ومائة بعير لابنه معاوية ، مائة لحكيم ن حزام ، ومائة بعير للحارث بن الحارث بن كلدة .

ومائة للحارث بن هشام ، ومائة لسهيل بن عمرو ، ومائة لحويطب بن عبد العزي ، ومائة للعلاء بن جارية الثقفي ، ومائة لعيينة بن حــصن ، ومائــة للأقرع بن حابس التميمي ومائة لصفوان بن أمية بن خلف الجمحي القرشي.

أعطاهم هذا العطاء العظيم ؛ لأنهم سادة قومهم وأشرافهم ، ليحبب إليهم الإسلام ، ويقوي إيمانهم ، ويزيل ما في قلوبهم من كراهيته ، إن المال هــو توءم الروح ، وهو الأكسير السحري الذي يفتح لصاحبه مغــاليق القلــوب. حتي قال صفوان ابن أمية (والله لقد كان محمد أبغض الناس إلــى فمــازال يعطيني حتى أنه لأحب الناس إلي) ثم أعلن إسلامه أمام رسول الله .

لقد أراد رسول الله بهذه العطايا العظيمة الهائلة ، أن يتألف هؤلاء السادة . ويجذب قلوبهم وقلوب قومهم نحو نور الإسلام وهداية التوحيد ، والإخلاص.

فالإسلام العظيم أمر بأن يعرف لكل ذي فضل فـضله ، وأن يوضـع الناس في منازلهم بين أقوامهم ، وأن يكرم كل عزيز قوم ، ولم يأمر الإسلام بأن تحكم رعوس المجتمع ، وتسلب أموال الأغنياء ، ويتساوى النـاس فـي الفقر والذل ، كما فعلت الثورة الشيوعية الماركسية الروسية بقيادة لينين عام ١٩١٧م.

لأن الثورة الروسية الماركسية ثورة دموية ملحدة حاقدة ، تعيش علـي إلهاب غرائز الحقد والحسد والنقص في قلوب أتباعها ، ضد الـصفوة مـن رجال الأمة ، ليكون المجتمع كالأغنام تتحكم فيه القلة الحاكمة ، التي جعلت لنفسها كل شيء وحرمت الشعب إلا من فتات الخبـز ، مـع سـلبه حريتـه وكرامته .

فهل هناك أي وجه للمقارنة بين تعاليم السماء التي جاء بها رسـول الله وتعاليم الشيطان التي جاء بها ماركس اليهودي ؟ ...

كلا وألف كلا. ولا مساواة بين النور والظلام. وبين الهدي والـضلال وبين العفو والانتقام ، وبين المحبة والحق ، وبين التراب والسحاب فها هـو رسول الله العظيم ، القائد المنتصر ، يكرم أعداء الأمـس غايـة الإكـرام . ويفيض علي أغنياء مكة وغيرها المزيد من الأموال ، ويحفظ سيادة كل سيد في قومه ، مع رفع العبيد إلي مرتبة الأحرار ، والمساواة بين أفراد المجتمع. وجعل الغني مسئولا عن أخيه الفقير ، وجعل التمايز بين الناس علي أسـاس التقوي والعمل الصالح والسمو بالغرائز لا الهبوط إلي أوحالها ، الحفاظ علي آدمية المسلم ، وحرية الرأي والاختيار وتوجيه الرعية إلى المثل العليا .

فهما هم وفد هوزان يأتون إلى رسول الله ، وقد أسلموا قائلين.

– يا رسول الله إنا أصل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فأمنن علينا منّ الله عليك .

– أبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم ؟

– يا رسول الله : نساؤنا وأبناؤنا أحب إلينا من أموالنا.

– أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا : إنّا نستشفع برسول الله إلي المسلمين وبالمسلمين إلي رسول الله في أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك واسأل لكم.

فلما فعلوا ذلك ، قال رسول الله ﷺ وأما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ وقالت الأنصار وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، وقال الأقرع بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا ، وقال عينية ابن حصن : أما أنا وبنو فزارة فلا.

وقال العباس بن مرداس : أما أنا وبنو سليم فلا. فقالت بنو سليم :

بلى ، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ، فقال العباس بن مرداس : وهنتموني يا بني سليم وخالفتم أمري.

قال رسول الله ﷺ في احترام كامل لرأي من تمسك بحقه (أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله لكل إنسان ست فرائض من أول سبي أصيبه .. فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم).

ورد عبد الله بن عمر جارية كانت تعد وتهيأ له ليدخل عليها ويستمتع بها ، ويطوف في محاسن جمالها .

وأبي الأحمق المطاع عينية بن حصن الفزاري رد عجوز وقعت في

سهمه ، فقال : أرى هذه العجوز لها في هوازن نسبا عاليا وعسى أن يعظم فداؤها فقال له الزهير أبو حرد :

خذها ، فوالله ما فوها ببارد ولا ثديها بناهد ولا بطنها بوالد ، ولا زوجها بواجد – حزين .

فردها عيينة حين قال له زهير ما قال .

١٧- **إسلام هوازن** : وكان لتحرير الرسول القائد لنساء وذراري هوازن أطيب الأثر في نفوس القبيلة الكبيرة ، فأسلمت وحسن إسلامها وصارت قوة للمسلمين ، ولم تعد قوة معادية لهم .

١٨- **إسلام مالك بن عوف النصري ومحاربته لثقيف حتى ذهبت مسلمة إلى رسول الله** . وحينما علم رسول الله من وفد هوازن بوجود مالك بن عوف قائدهم في الطائف ، قال لهم رسول الله في حنكة سياسية فذة .

أخبروا مالكا أنه إن أتاني مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل.

فأدرك مالك رسول الله بمكة مسلما ، فأعطاه الرسول ما وعد ، وجعله الرسول القائد أميرا علي من أسلم من قومه ، وقبائل ثمالة وسلمة وفهم . فكان يقاتل بهم ثقيفا ، لا يخرج لهم سرح ألا أغار عليه..

وضيق غاية الضيق على ثقيف في حنين ، حتي أرغمهم على التسليم والذهاب إلى رسول الله .

فكان اختيار رسول الله لمالك بن عوف أميرا علي قومه ومن أسلم من القبائل الثلاث موفقا غاية التوفيق ، ونشأ عن هذا الاختيار السديد إسلام ثقيف آخر قوة كبيرة كافرة في الجزيرة العربية .

١٩- الرسول يسترضي الأنصار : علم رسول الله من سعد بن عبادة بأن الأنصار غاضبة لأن الرسول قسم الأموال في قريش وقبائل العرب ولم يجعل لهم منها نصيبا ، فأمر الرسول سعدا أن يجمع له الأنصار ، ثم أتاهم رسول الله فخاطبهم قائلا بعد أن حمد الله وأثني عليه بما هو أهله :

يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها علي في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قَالوا : بلى يا رسول الله ، الله ورسوله أمن وأفضل .

ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟

بماذا نجيبك يا رسول الله ، لله ولرسوله المنّ والفضل.

أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم :

أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك ، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم للعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟! .. ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار.

فسألت دموع الأنصار علي لحاهم من مشاعر رسول الله النبيلة نحوهم . معرفته لفضلهم ، وبيانه لحجتهم ، ودعائه لهم ولأحفادهم ولأبنائهم ، وثقته في قوة أيمانهم ، وقال الأنصار : رضينا برسول الله قسما وحظا.

فأي بلاغة هذه ؟! وأي نور هذا ؟! ..

هذه أعظم خطبة سياسية قيلت في تاريخ العالم ، كلها صـــدق وحــق ، بين فيها الرسول القائد فضله علي الأنصار ، وبين فيها فضل الأنصار عليه وأثار حماسهم الديني ببيان ثقته الكاملة في إسلامهم ، وسمو أنفــسهم عــن عرض الدنيا الزائل ، وجعل نفسه من نصيب الأنصار ، في مقابل عــرض الدنيا الزائل الذي قسمه علي قريش وقبائل العرب من الشاة والبعير.

ورسول الله هو النور وهو السعادة وهو الرباط الوثيــق برحمــة الله . وجنات الخلود ، وبين لهم لولا الهجرة لكان منهم . وأنه مع عظمته تابع لهم في طريقهم ، أنه طريق الحق والسداد والإيمان وطاعــة الله ، وكفــي بهــا عظمة أن يكون خير خلق الله ونور الله ورحمته إلى العالمين ، يــسير فــي الطريق الذي تسلكه الأنصار دون غيرهم.

ثم ختم خطبته الرائعة في صدقها ، بأن أعطاهم ما يبقي ولا يغني وهو الدعاء لهم بالرحمة من الله هم وأبناؤهم وأحفادهم ، لم يتلاعب بعواطفهم كما يفعل الساسة والقادة في كل زمان ومكان ، ولم يكذب عليهم ولم يقــل لهــم وعنهم غير الحق ، فصلوات الله وسلامه عليك يا خير خلق الله.

٢٠- غزوة تبوك :

كانت هذه الغزوة في رجب السنة التاسعة من الهجرة ، وهذه الغــزوة العظمى كانت موجهة ضد أعظم قوة في العــالم فــي ذلــك الوقــت وهــي الإمبراطورية الرومانية .

وقد علم الرسول القائد بأن الرومان يستعدون لغزو المدينة مــع حلفــائهم العرب ، فقرر مفاجأتهم بالهجوم ، إتباعا لخطته العسكرية ، وهي أن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع.

فأمر المسلمين بالاستعداد لمواجهة الروم في معركة عظمي ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يصرح فيها الرسول القائد بوجهته ، لقوة العدو الهائلة من ناحية ، وبعد المسافة من ناحية ثانية ، وللجدب وشدة الحر من ناحية ثالثة ، ولإثارة حماسة المسلمين وتميز المؤمنين من المنافقين من ناحية رابعة.

٢- تحرك الرسول القائد بعشرات الآلاف من المؤمنين الأبطال ، وأما المنافقون فقد تخلفوا عن هذه الغزوة ، فأنزل الله فيهم قوله الحق ، قال تعالى

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ۝٨١ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (٨١/٨٢: التوبة)

وترك الرسول القائد البطل الغالب علي بن أبي طالب في أهله قائلا له :

(ألا ترضي يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسي ألا أنه لا نبي بعدي).

وذلك لما أشاع المنافقون أن الرسول قد خلف عليا لأنه يستثقله كذبا وزورا.

٢- قيصر لا يجرؤ على مواجهة رسول الإسلام :

وصل الرسول القائد إلى تبوك علي حدود الروم في مائة وخمسين ألف بطل صنديد ، وكان قيصر الروم قد حشد أكثر من أربعمائة ألف مقاتل ، ولكن الله تعالي ألقى الرعب في قلبه من رسوله العظيم ، فأنسحب قيصر إلي داخل بلاده ، لأنه يعلم علم اليقين صدق نبوة محمد رسول الله ، كما وصفته التوراة ووصفه الإنجيل ، وتأكدت له هذه الصفات من أبي سفيان بن حرب في خلال فترة الهدنة بين المسلمين وقريش عقب صلح الحديبية.

وقيصر يعلم أن الله ينصر رسوله ، وقد أخبر قيصر قومه بأن بلاده في الشام سيمتد إليها ملك محمد في يوم آت لا محالة ، والله تعالىٰ قد نصر رسوله بالرعب مسيرة شهر يلقى في قلوب أعدائه ، وقيصر يعلم علم اليقين بأن المسيح – عليه السلام– إن كان قال (أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله) ؛ لأنه كان أحد رعايا الرومان ، فإن محمدا يقول (كل ما في السموات وفي الأرض وما بينهما ، وما في كون الله الذي يشمل السموات والأرض وغيرهما فهو لله وحده الذي لا شريك له في حكمه) لأن محمدا رسول محارب لا سلطان لأحد عليه ألا الله ، فهو وحده صاحب السلطان عليه.

وانسحاب قيصر أمام الرسول القائد بجيوش أعظم دولة في العالم في ذلك الوقت هو أعظم انتصار للرسول القائد أعظم أبطال الحرب والسلام.

ووقوف الرسول علي حدود الروم بجيشه العظيم ، إشارة عملية للزحف المقدس الذي قاده أبو بكر الصديق ﷺ نحو حدود أعظم قوتين في العالم في ذاك الوقت ، وهما إمبراطورية الروم في الشمال ، وإمبراطورية الفرس في الشرق ، لتعلو كلمة التوحيد ، ويشرق على العالم نور الإسلام.

٤– وقد عقد الرسول القائد في هذه الغزوة العظيمة معاهدات صلح مع أمارات الحدود وهم أهل أيلة وأهل جرباء وأهل أذرج ، وقد وافقوا علي دفع الجزية لرسول الله ﷺ وكان نص كتاب رسول الله لصاحب أيلة هو :

(بسم الله الرحمن الرحيم. هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤية وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن ، وأهل البحر. فمن أحدث منهم حدثا فأنه لا يحول ما له دون نفسه ، وأنه طيب لمن أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر).

٥- خالد وأكيدر بن عبد الملك ملك دومة الجندل ، وبعث الرسول القائد سيف الله المسلول خالد بن الوليد مع فرقة من جيشه إلى ملك دومة الجندل قائلا له (ستجده يصيد البقر) وكان أكيدر نصرانيا من قبيلة كندة.

٦- وقبل قدوم خالد في هذه الليلة ، كان ملك دومة فوق سطح قصره العالي البنيان ، مع زوجته الحسناء يتسامران في هذه الليلة من ليالي الصيف التي يفترش فيها القمر الفضي بساط السماء الصافية ، وتشع أنواره الهادئة علي الأشجار المتراقصة ، وتتعانق أشعة القمر البلورية مع المياه المنسابة في خرير موسيقيّ رائع بين الأزهار والورود والأشجار والعشب الوديع. ومفاتن الحسناء الرائعة الجمال تشرق بالبهاء والإثارة وعطر الأنوثة المخدر للأعصاب تحت شعاع القمر اللعوب ، وزادت جمال الصورة تلك الأبقار الوديعة التي انطلقت من حظائرها ، وتهادت في ممرات الحديقة تشرب من مياه الجداول الفضية ، وتأكل من العشب الطري ، وتنظر بعيونها الرائعة الواسعة في شغف إلي ضياء القمر الفضي ، الذي يكسو أجسادها الناعمة أكسية من فضة وبلور وأبصرت الملكة الجميلة ، الأبقار الوديعة وهي تحك بقرونها السوداء الناعمة أبواب القصر ، تريد الدخول إليه ، والتجوال في أنحائه ، ودر اللبن لأهله ، فقالت الملكة مبهورة :

هل رأيت يا زوجي مثل هذا الجمال قط ؟

كلا والله ، هذه الليلة تعادل أعواما من الدهر .

ما أروع هذا السرب من الأبقار وهو يحك بقرونه أبواب القصر. ويستأذن في الدخول. وأشعة القمر الفضية تلبسه أردية من الفضة والبلور.

حقا. ما أجمل هذه الأبقار.

فمن يترك صيد مثل هذه الحيوانات الرائعة الجمال ، الوديعة الصفات.

الساحرة العيون.

والله لأذهبن الآن مع أخي حسان وندمائي من أهل بيتي لنصيد المزيد منها علي ظهور الخيل في هذه الليلة القمراء ، من ليالي الصيف الساحرة. ذات النسمات المنعشة للأجساد وللأرواح .

جعل الله صيدكم وفيرا ،،،، شكرا لك يا زوجتي الحبيبة .

٧- الصائد يصاد :

وحينما خرج الملك مع أخيه حسان ورجاله ، هاجمهم خالد بن الوليد ، فقتل حسان ، وسقط الملك أسيرا في أيدي المسلمين ، وكان عليه قباء من حرير منسوج بخيوط الذهب ، يلمع تحت أشعة القمر الفضية ، فأرسله خالد إلى رسول الله ، فأثار ذهول وإعجاب أصحاب رسول الله ﷺ ، فأخذوا يلمسونه بأيديهم فقال لهم رسول الله : أتعجبون من هذا القباء ؟

قالوا : بلى يا رسول الله .

والذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا.

الله أكبر. الله أكبر. اللهم أجعلنا من أهلها.

جعلكم الله من أهلها.

وأقبل خالد بالملك على رسول الله ﷺ ، فحقن رسول الله دمه ، وصالحه علي الجزية ، ورده إلى بلده في أكرام وسلام.

ثم أمر الرسول القائد بالعودة إلى المدينة بعد أن مكث بتبوك بضع عشرة ليلة ، وحقق هذه المصالحات الهامة مع إمارات الحدود ، وحصل منهم علي الجزية ، فزادت مصادر دخل المسلمين.

وجعل بهذه الغزوة أعظم قوة في العالم تهاب المسلمين ، وتعمل لها ألف حساب ، ورفع من روح المسلمين المعنوية إلى ما فوق النجوم ، ووجه المسلمين مستقبلا إلى البلاد التي يجاهدون فيها في سبيل الله لنشر نور الإسلام.

حجة الوداع ووصايا رسول الله

انتشر نور الإسلام في أنحاء الجزيرة العربية. ودخلت القبائل كلها في دين الله أفواجا ، وعقد الرسول الأعظم معاهدات سلام مع كل القبائل التي أسلمت لله رب العالمين.

وتحطمت كل الأوثان والأصنام التي كانت تعبد من دون الله في أنحاء جزيرة العرب ، ودعا رسول الله محمد - صلوات الله وسلامه عليه- ملوك وأمراء الدول المحيطة بالجزيرة العربية إلي الإسلام ، وعبادة الله وحده . وترك عبادة البشر بعضهم بعضا ، وتركهم عبادة الأوثان والأصنام والصور والنيران ، فلا عبادة للملوك والرؤساء ، ولا عبادة للأحبار والرهبان ، ولا عبادة لعيسى- عليه السلام- فإنه بشر قال الله القادر كن في بطن العذراء مريم فكان وهو رسول الله إلي بني إسرائيل ، يدعو خراف اليهود الضالة إلى حظيرة الإيمان ، وتوحيد الله رب السموات والأرض وما بينهما. وإخلاص العبادة للقاهر الديان.

وها هو رسول الله الأعظم رحمة الله للعالمين يلتقي بعشرات الآلاف من المسلمين والمسلمات في عرفة ، جاءوا من كل أنحاء الجزيرة العربية ومن كل قبائلها لأداء حجة الوداع مع رسوله العظيم. وهم يرفعون إلى الله سحبا من الأنوار قائلين (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك)

وها هو الرسول القائد فوق ناقته الوديعة بالقرب من الصخرات بعرفة يطل على جنود التوحيد والإسلام الذين هداهم الله به إلى نعيم الإيمان. وأنقذهم به من جحيم النيران ، الابتسامة المشرقة المعذبة تضيء وجه رسول الله الرائع الجمال ، والحنان والرحمة علي مخلوقات الله بفيضان من قلبه

الطاهر. ونظر فوقه إلي السماء الزرقاء التي تحيط كسرداق رائـــع الجمـــال بهذا الوادي المقدس ، وتقوم الجبال الرائعة الألوان كأنهـــا العمـــد لـــسرادق السماء. والسحاب الأبيض المتهادي التي تنعكس عليه أشعة الشمس بـــألوان الطيف السبعة ، كأنها المصابيح المشرقة في هذا السرادق العظيم.

ورأى الملائكة الأطهار تملأ أرجاء الفضاء الرحيب تدعو الله بالغفران لحجاج بيته الحرام ، تشع أنوارهم الآلهية العظيمة البهاء في أرجاء الفضاء .

وها هو أمين الله على وحيه وسفيره إلى رسله جبريل – عليه السلام – قد بين له في مني كمال الإسلام وأمام نعمة الله على المسلمين بهدايتهم إلـــى الدين الذي ارتضاه وحده لخلقه منذ مجيء الرسول الأعظم خاتم الرسل محمد به إلى قيام الساعة ، فقال تعالى :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (٣ : المائدة)

ماذا بعد كمال الدين إلا الرحيل إلي الحبيب ، إلي الرفيق الأعلى إلـــى رب العالمين ، ومن بيده وحده مقاليد السموات والأرض ! .. وفاضت عيناه بالدموع ، شوقا إلى الله وها هو أمين الوحي جبريل يهبط عليه من المـــساء وهو مازال في مني بعد نزوله بالآية الكريمة التي بين فيها كمـــال الـــدين ، ينزل عليه بآخر سورة في القرآن ، سورة النصر، سورة الوداع ، الـــسورة التي نعيت فيها نفس النبي الكريم إليه ، وبـــشره الله تعـــالى بقـــرب لقائـــه والصعود إليه.

وتلاشي حدود الكون أمام أعظم نفس خلقها الله تعالى وهي نفس محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وأمام أعظم روح فاضت على جسد ، وهي روح محمد – صلوات الله وسلامه عليه– قال تعالى له في آخر سورة نزلت مـــن

القرآن العظيم ، كلام الله الخالد المقدس : قال تعالى :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾

(النصر : ١/٣)

لقد جاء نصر الله والفتح ، وها هم الناس قد دخلوا في دين الله الحق الإسلام أفواجا ، فعليك يا حبيب الله مواصلة تسبيح الله واستغفاره ؛ لأنه ربك الخالق العظيم الرحيم الكثير التوبة.

ها هم المسلمون في لباس واحد بسيط متشابه ، في مكان واحد. يبتهلون إلى الله الرحيم بدعاء واحد ، في صورة أخاذة للمساواة العملية بين المسلمين في الإسلام ، ها هم لا فرق بين أمير وسوقة ، ولا بين غني وفقير. ولا بين أبيض وأسود ولا بين عربي غير عربي ، القلوب خاشعة ، والعيون دامعة والأرواح تشف عن أنوار الرحمة والنفوس ظمآنة إلى ثواب الله ومغفرته ، والعقول مفكرة في عظمة الله ، والآذان متلهفة إلى النور الذي سيخرج من فم رسول الله ليضيء القلوب عن طريقها ، وإلى سماع أنغام الخلود التي ستعزفها كلمات رسول الله في قلوب المسلمين منذ هذا الوقت إلى نهاية الدنيا وقيام الساعة ، وانطلقت أشعة النور الباهر من فم رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه– وأحني التاريخ رأسه يسمع لحن الخلود من أعظم أبطال الحرب والسلام ، ورددت قلوب الجبال كلمات رسول الله الرائعة الجمال ،وخشعت هامات الجبال ورسول الإسلام يخطب قائلا: بعد حمد الله :

(أيها الناس اسمعوا قولي ، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا ، أيها الناس أن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وأنكم ستقلون ربكم كحرمة يومكم هذا وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل

ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضي الله لا ربا ، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وإن كان دم كان في الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم أبن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعا في بني ليث ، فقتلته هذيل ، فهو أول ما أبدأ بـه من دماء الجاهلية.

أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ولكنه فيما سوى ذلك فقد رضي به ، مما تحقرون من أعمالكم ، فأحذروه علي دينكم ، أيها الناس. أن النسيء زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله . ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ، ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان ، أما بعد أيها الناس ، فإن لكم علي نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن عندكم عوان- أسيرات – لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما آخذتموهن بأمانة الله. واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، أمرا بينا ، كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس : اسمعوا قولي واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم . وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم.

أيها الناس :

إن الله أدى إلي كل ذي حق حقه ، وإنه لا تجوز وصية لوارث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، ومن أدعى إلي غير أبيه أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه حرفا ولا عدلا ، اللهم هل بلغت ؟

فصاح الناس : اللهم نعم .

فقال رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – (اللهم فاشهد)

خطبة رائعة ، خالدة ، وضعت أساس المجتمع الفاضل السعيد. المتراحم ، العادل ، الأمين ، العامل لدنياه ، وأخرته ففيها :

١- تحريم سفك الدماء بغير حق ، لحرمة الحياة البشرية.

٢- تحريم سلب الأموال ليكون لكل عامل جزاء علمه ، وثمرة كدحه وتعبه.

٣- الاستعداد للقاء الله بالعمل الصالح.

٤- المحافظة على الأمانات وأدائها لأصحابها ، ليكون المجتمع الإسلامي. مجتمعا أمينا ، لا يعرف الخيانة.

٥- تحريم الربا ؛ لأنه استغلال لحاجة المحتاج ، وأخذ ثمرة كدحه وتعبه وعرقه بغير حق.

٦- بدأ الرسول القائد العظيم الحكيم بإلغاء ربا عمه العباس ، وهو أقرب الناس إليه ، إن الحاكم العظيم العادل هو الذي يبدأ بتطبيق حكم الله علي أقرب الناس إليه ، ليعلم الناس صدقه في ورعه. ونزاهته في حكمه.

٧- إحلال القرض ، واسترجاع رءوس الأموال ، أن القرض فيـه تيـسير علي الناس وسد لحاجة المحتاج في عزة وكرامة وشمم ، فثوابه عظيم عند الله تعالى

٨- الإسلام يفتح صفحة جديدة لإتباعه ، فثأر الجاهلية والدماء التي سفكت فيها قد ألغيت بالإسلام ، وأول دم لا يطالب به هو دم ابن ربيعـة بـن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله – صـلوات الله وسـلامه عليه- فالإسلام يجب ما قبله.

٩- الشيطان قد يئس من أن يعبد في جزيرة العرب ، ولكنه يرضى بإشعال العصبية الجاهلية ، وتزكية نيران العداوة والخصام ، والتشجيع علـي المعاصي والذنوب ، فيجب الحذر منه ، ومعصيته ، ومخالفة أوامره .

١٠- الأشهر الحرم أربعة وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحـرم ورجـب ، يحرم التلاعب فيها ، وتقديمها وتأخيرها علي حسب أهواء الناس ، كما كان يفعل العرب في الجاهلية.

١١- الوصية بحسن معاملة النساء لأنهن ضعيفات ، وهن في حكم الرجـال كالأسيرات لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وهن أمانة لله عند الرجال ، فيجب المحافظة علي أمانة الله ، وقد استحل الرجـال فـروجهن بحكـم الله وشريعته ، ودينه ، فالاتصال بالزوجة إذا أريد طاعة الله ، وتحـصيل الولد ، وتحصين النفس والزوجة يكون عبادة يثاب فاعله ، ولا يكـون غريزة حيوانية تقضى لإطفاء نيران الشهوة .

١٢- وعلى المرأة أن تعرف حق الزوج ، فلا تدخل بيته من لا يرغب فـي دخوله ، ولو كان أقرب الناس إليها ، وعلى النـساء المحافظـة علـى شرف الرجال ، وعدم التفريط في عفتها ، وإطلاع من لا يحل لها على

مفاتنها ، وإذا فعلت المرأة ما يغضب الزوج فله أن يعظها ، ثم يهجرها في المضجع بألا يتصل بها ثم يضربها ضربا غير شديد.

١٣- على الرجل أن يوفر الطعام والكساء والسكن لزوجته ، إذا كانت مطيعة له ، وغير ناشزة .

١٤- المسلمون إخوة ، يجب أن يحافظ كل مسلم علي مشاعر أخيه وعلى ماله ونفسه وعرضه.

١٥- دستور المسلمين الأوحد هو كتاب الله وسنة رسوله.

١٦- لا تجوز الوصية للوارث حتي لا يظلم بقية الورثة.

١٧- ينسب الولد لفراش الزوجية ، ولا يجوز لعاهر أن يدعي بنوة مولود . أمه تحت رجل آخر وقت الحمل والوضع بعقد الزواج الذي أحله الله .

١٨- تحريم الانتساب غير الأب ؛ لأنَّ الإسلام حرم التبني.

١٩- تحريم أنساب العبد المحرر إلى غير من أعتقه حفظا للجميل ، وتوثيقا للعشرة .

هذه أحكام تلك الخطبة العظيمة ، التي أضاءت وادي عرفة بأنوارها المشرقة. واهتزت لها القلوب والأسماع ، والجبال والسحاب ، وابتسمت لها السماء الزرقاء ، وترنمت بها الملائكة ، وحفرها التاريخ في قلبه بمداد من نور.

هذه خطبة الوداع ألقاها محمد رسول الله على حجاج بيت الله في هذا العام الخالد العام العاشر من الهجرة الشريفة ، أبكت القلوب ، وشهقت الأجساد ، وفاضت الدموع ، وأحاط بالجميع نور الرحمة ، وسربلهم الله بسربال الخشوع .

وقبل أن يتحرك الرسول نحو المزدلفة ، هبط جبريل - عليه السلام- يحمل لرسول الله آخر آية من القرآن العظيم ، يحمل قول الله - سبحانه وتعالى- في سورة البقرة الآية الحادية والثمانين بعد المائتين - ٢٨١ - وهي قول الله - تعالى- مخاطبا الخلق جميعا ومحذرا لهم ، قال تعالى :

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٢٨١: البقرة)

وفاضت عينا رسول الله بالدموع ، لقد تم القرآن كلام الله الخالد ، وأدى جبريل الحبيب رسالته ، وأدى الرسول العظيم رسالته هو أيضا ، وبقي الوداع لأصحابه وأمته وزوجاته ومسجده ولمكة وللمدينة ولأهل مقابر البقيع ولشهداء أحد.

نعم أحذروا أيها الخلق يوم القيامة ، هذا اليوم المهول ، الذي يشيب فيه الوليد ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، ويقف الخلق بين يدي الله الذي لا اله سواه ، الحاكم العادل الذي يجازي كل أحد بما عمل ، ولا يظلم ربك أحدا.

وبكت السماء لبكاء الرسول الأعظم ، فاحمرت عيون الشمس ثم غابت خلف حجاب من الليل الرقيق ، وهي تسكب دموعها علي الجبال والوديان والسحاب في ألوان قوس قزح ، ألوان الطيف السبعة ، وفاضت عيون السماء وقلوب السحاب بالمطر لتغسل الذنوب والخطايا ، وبشارة من الله بالمغفرة والتوبة ، واندفعت ناقة رسول الله إلي المزدلفة وأمامها وخلفها أمواج من المسلمين. يملئون الوادي بأنشودة التوحيد المقدسة.

الرسول الأعظم يعود إلى المدينة

عاد رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه– إلى المدينة تحيط به قلوب المسلمين في كل أنحاء الجزيرة ، وعادت الذاكرة إلى كل الحوادث التي مرت به وبأصحابه الأبطال ، وتغير بها تاريخ العالم ، حتي أكمل الله – سبحانه وتعالي– دينه ، وأتم نعمته بالإسلام علي أهل الجزيرة العربية ، وختم الله كتابه المقدس معجزة الإسلام الخالدة ، القرآن العظيم ، كلام الله المنير الذي لا يحتوي إلا على الحق المبين ، وتذكر الرسول القائد :

ثلاث عشرة سنة يدعو فيها إلي الله بمكة بالموعظة والحسني ، يحتمل الأذي مع أصحابه ، في صبر وصمود وشموخ ، ويهاجر أصحابه إلي الحبشة هجرتين ، فرارا بدينهم ، ونجاة بإسلامهم ، لتتاح لهم فرصة عبادة الله وحده في دعة وأمان ، في حماية ملك عادل ، يعتنق النصرانية الحقة . ثم يهديه الله للإسلام فيما بعد ويتذكر العهد المدني ، والهجرة إلي الأنصار في المدينة ، وإقامة دولة الإسلام المشرقة بنور التوحيد والعدل والإخاء والمساواة ، الحفاظ علي كرامة الإنسان ، صيانة الدماء وتذكر الغزوات التي خاضها بنفسه دفاعا عن الإسلام ودولته الناشئة ومبادئ الإسلام العظيمة.

غزا ثلاثين غزوة في سبيل الله كان فيها على رأس أبطاله الشجعان :

وتذكر الرسول القائد بعوثه وسراياه في أنحاء الجزيرة التي بلغت تسعا وثلاثين ، بقيادة أبطال المسلمين ، بعد هذه الغزوات والبعوث والسرايا عم دين الله أنحاء الجزيرة ، وجاءت وفود القبائل تعلن الإسلام وتطلب السلام. ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وتم نصر الله والفتح.

وها هي بعض البعوث الفدائية الاستشهادية ، والسرايا تتمثل أمام ذاكرة الرسول الأعظم – صلوات الله وسلامه عليه– وتذكر الرسول غزوة غالب بن عبد الله ، وغزوة عبد الله بن أبي حدرد ، وما تدلان عليه من كرامة المسلم عند ربه –سبحانه وتعالى– .

غزوة غالب بن عبد الله الليثي بن الملوح

تلك الغزوة التي أرسلها رسول الله بقيادة البطل غالب بن عبد الله الليثـي لغزو بني الملوح بالكديد ، ففاجأ المسلمون بني الملوح بالغارة عند الهزيع الأخير من الليل. وهم يغطون في نوم عميق. فقتل فيها المسلمون من وقف في طريقهم. وساقوا الإبل والغنم أمامهم ، وهب القوم من رقادهم وتصارخوا في طلب المسلمين ، وكان المسلمين وبينهم وادي قديد ، وحدثت معجزة السماء العجيبة ، ففاض الوادي بالماء ، وسال السيل من غير هطول أمطار ، أو وجود سحاب بقدرة الله تعالى وعلا الزبد وجه الماء ، وتدفق الموج في قوة وعنفوان وهدير رهيب ، إنه جيش الله القاهر ، جاء لتعطيل الأعداء ، ووسط ذهولهم ، وانبهارهم سار المسلمون في طريقهم إلى رسول الله ، يسوقون الإبل والشياه ولم يستطع أحد من الأعداء العبور إليهم ، فسيوف الماء الماحقة بالمرصاد لمن يريد العبور ، والله غالب علي أمره ولكن أكثر النّاس لا يعلمون ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.

غزوة ابن أبي حدرد أضم

هذه الغزوة التي بعث فيها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه البطل عبد الله بن أبي حدرد في نفر المسلمين لغزو أضم ، فقتل فيها محلم بن جثامة عامر بن الأخبط الأشجعي ، بعد أن ألقى السلام علي أصحاب رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – قتله لشيء كان بينه وبينه فنزل قول الله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ (٩٤ : النساء)

فدفع رسول الله دية القتيل مائة من الأبل.

ودعا رسول الله على محلم بن جثامة الذي قتل عامر غضبا لنفسه وطمعا في بعيره ومتاعه ، فقال رسول الله :

(اللهم لا تغفر لمحلم بن جثامة ثلاثا) وقال لمحلم موبخا :

أمنته بالله ثم قتلته ؟! .. قتلته وهو مسلم موحد الله ؟! .. ومات محلم بن جثامة بعد سبع ليالي. فلفظته الأرض من بطنها مرتين ، كلما واروه التراب ، قذفته الأرض على ظهرها حتى وضعوه بين جبلين وألقوا عليه الأحجار وأروه فقال رسول الله حينما علم بذلك :

(والله إن الأرض لتنطبق على من هو شر منه ، ولكن الله أراد أن يعظكم في حرمة ما بينكم بما أراكم منه).

الرسول بين زوجاته :

ها هو الرسول الأعظم بين زوجاته زوج حنون محب رحيم ، مرح . يذهب إلى زوجته الحبيبة السيدة مارية القبطية المصرية أم ولده إبراهيم الذي ذهب إلى ربه وهو طفل رضيع في عمر الزهور ، يرى في عينيها الرائعتين الحب له والحزن على الملاك الغائب .

إنها سليلة مصر العظيمة الخالدة ، وابنة النيل الخالد ، رائعة في كل شيء ، في أخلاقها ، في ثقافتها ، في دينها في حبها ، الحزن يزيدها جلالا. يحاول الرسول الأعظم مواساتها ، وإدخال السرور إلى نفسها ، كله عطف وحنان وحب لها ، إنها هدية المقوقس ملك مصر له ، إنها أول من دخل نور الإسلام قلبه من أهل مصر ، وأختها سيرين زوجة حسان بن ثابت شاعر الرسول ، إنها سليلة كنانة الله في أرضه ، إنها البشارة بإسلام أهل مصر. وحمايتهم للإسلام في مقبلات الأيام ، كم أنت رائعة يا مارية ، وأنت تظهرين للرسول الزوج السرور، وتخفين الحزن ، وتمسحين بيدك على

رأسه العظيم في حنان وحب وشوق وهيام وتقدير.

وها هو رسول الله الأعظم مع طيف زوجته الأولى العظيمة خديجة . سيدة نساء الجنة ، أحب زوجاته إليه ، أول من آمن به ، صدقته إذ كذبه الناس، وخطبته إلى نفسها وهو الشاب الفقير ، الأجير لها ، وتركت أغنياء العرب من أجله ، وواسته بمالها ، وكانت الأم الحنون التي يرتاح إلى قربها. وتزيل آلامه بحنانها ، وكانت الزوجة المحبة العاشقة لزوجها ، وكانت الدرع الصلد الذي واجه به أعداءه ، إنها التي قاسمته آلام وجوع شعب أبي طالب ما يقارب السنوات الثلاث حينما قاطعت قريش بني هاشم ، وفرضت عليهم الحصار الاقتصادي ، إنها أم أولاده وبناته ، عبد الله والقاسم وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، رحمك الله يا خديجة ، انطوت الأيام والأعوام وبقيت أيام ويلتقي بك زوجك الحبيب في عالم الخلود .

وها هو الرسول الزوج في بيت عائشة ، أحب زوجاته إليه بعد خديجة والبكر الوحيدة التي تزوجها ، لم تعرف رجلا قبله ، نشأت في نور الإسلام رائعة الذكاء ، بنت أبي بكر الصاحب الأول لرسول الله ، وأفضل أمة محمد الذي لو وزن إيمانه بإيمان أمة محمد لرجح إيمانه .

أول من آمن برسول الله من الرجال الأحرار ، وبذل ماله ونفسه في سبيل الله ، تزوجها طفلة صغيرة ، تلعب مع أترابها بالعرائس ، فكان يتركها معهن تواصل اللعب ، لا يريد أن يحرمها من نعيم الطفولة وباكورة الصبا. قلبه كبير ، يسع الخلق جميعا ، شديدة الحب له ، والغيرة عليه ، يقابل غيرتها بالصبر ، والحنان يسابقها في العدو ، فتغلبه مرة ويغلبها أخرى ، فيقول لها هذه بتلك ، طعن المنافقون في عرضها ، فأنزل الله براءتها من فوق سبع سموات ، في آيات خالدات إلى قيام الساعة في كتابه المقدس.

وكلامه الإلهي ، تزوجها الرسول ليوثق علاقته بأحب الرجال إليه.

وها هو رسول الله مع جويرية بنت الحارث ، سيدة بني المصطلق. تزوجها الرسول . فأعتق المسلمون أهلها وقبيلتها الذين سقطوا أسرى وسبايا في أيدي المسلمين في غزوة بني المصطلق .

وتزوج الرسول منها ، وهدى الله قبيلتها إلى الإسلام ، ومَنَّ المسلمون عليهم بالحرية ، واكتسب المسلمون قبيلة جديدة في صفوف الإسلام ، كلها حب لرسول الله ، وهيام به ، وتقدير لشخصه ، وانبهار بأخلاقه حنانها سحبا يهطل على قلب رسول الله بالسكينة والمحبة والنشوة والمتعة.

وها هو رسول الله الزوج في بيت زوجته زينب بنت جحش ابنة عمته. رائعة الجمال رائعة الإيمان ، كثيرة الصدقة على المحتاجين ، تنسج بيدها. وتجعل ثمرة تعبها للأرامل ، ومن عضهم الدهر بنابه ، زوجها الرسول لزيد بن حارثة الذي كان عبدا له ، وتبناه الرسول ونسبه إليه قبل تحريم الإسلام التبني ونسبة الأبناء لغير آبائهم ، زوجها الرسول لزيد وهي الشريفة. القرشية الأصيلة القرابة من رسول الله ، لإلغاء العصبية الجنسي عمليا.

وتحقيق المساواة بين المسلمين وإثبات أن لا فضل لعربي علي غيره ، ولا فضل لعربي علي عربي إلا بالتقوي والعمل الصالح ، وشاء الله طلاقها من زيد بعد تكبرها عليه ، وزوجها الله من فوق سبع سموات برسول الله لإبطال أن زوجة الابن بالتبني تحرم علي المتبني ، كما حرم زوجة الابن الأصيل.

نظر الرسول الزوج إلى زوجته زينب في حب وحنان ، فقد ألقى الله في نفسه أنها ستكون أول زوجاته لحاقا به بعد وفاته في عالم الخلود ، كلها حب وحنان لرسول الله ، يربطها به رباط الزوجية والقرابة ، ونور الإسلام.

ويذهب الرسول إلي بيت زوجته رائعة الإيمان والأخلاق ، صفية بنت حيي ، سيدة نساء يهود بني النضير ، ابنة سيدهم وسليلة هارون بن عمران رسول الله ، وعمها موسى بن عمران رسول الله وكليمه ، أبوها قتل علـــى عدائه لرسول الله يوم قريظة ، وقتل زوجها كنانة بن الربيع سيد يهود خيبر يوم خيبر .

وتزوجها الرسول ليتقرب بها إلى اليهود ، لعل الله يهديهم ؛ لأنه القائل : (ارحموا عزيز قوم ذل وغني قوم افتقر، وعالما ضاع بين جهال).

لقد بشرها الله بزواجها من رسول الله قبل زواجها منه قرأت قمرا ســقط في حجرها ، فكان رسول الله هو زوجها ، والقمر الذي أضاء قلبها بالإيمان وحياتها بالحب والحنان ، كلها حب له وهيام به ، تكاد تطير مــن الــسرور حينما تراه ، لا تكاد تصبر على فراقه ، تذهب إليه في المــسجد فــي أيــام اعتكافه في النصف الأخير من رمضان لترى طلعته البهية ، وتسمع موسيقى كلماته العذبة .

ويمشي معها رسول الله لوداعها وتوصيلها إلى بيتها في حنان غــامر وعاطفة جياشة بالحب والتقدير ، رسول الله هو كل شيء لهــا ، هــو الأب والأم والأخ والأخت والزوج ، تغار منها عائشة ، ويهاجمها نساء الرســول لأصلها اليهودي ، فيدافع الرسول عنها ، وينصرها عليهن ، ويقــول لهــا : قولي لهن :

(أبي هارون رسول الله ، وعمي موسى رسول الله ، وزوجي محمــد رسول الله) وكانَ نور الإيمان يزيدها جمالا علي جمالهــا ، ونــور الحــب لزوجها رسول الله يزيدها روعة ، وحسن أخلاقها وأدبها يزيدها جاذبيــة ، قالت عائشة عنها إنها قصيرة فقال رسول الله لعائشة :

(لقد اغتبتها يا عائشة) وتكلمتي بكلمة لو مزجت بماء البحر لغيرته).

ويذهب رسول الله إلى بيت زوجته السيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، أم المؤمنين هند ، تزوجها الرسول وهي مهاجرة بدينها في الحبشة. بعد ارتداد زوجها عن الإسلام واعتناقه النصرانية ، وزوجها السابق هو عبيد الله بن حجش ، ابن عمة رسول الله ، وشقيق السيدة زينب بنت حجش. أعجب الرسول بصمودها علي دينها ، فأرسل إلى النجاشي ملك الحبشة ليخطبها له ، فأصدقها عنه أربعمائة دينار ، وعقد عليها رسول الله ، حماية لها من الضياع ، وآلام الحياة ، وإعجابا بإيمانها ؛ لأنها عادت في سبيل الإسلام ، وليتقرب الرسول بزواجها من أبي سفيان بن حرب زعيم مشركي مكة ، وقائد العرب ضد رسول الله ، شامخة الإيمان قوية الشخصية ، يملأ قلبها حب الإسلام وحب رسول الله ، مكثت سنوات في الحبشة وهي بعيدة عن زوجها رسول الله ، جاءت إليه في العام السابع من الهجرة ، كلها عطف برسول الله ، رفضت أن يجلس أبوها أبو سفيان علي فراش رسول الله حينما رأته بعد سنوات طوال ، إنه مشرك ، والمشرك لا يحق له أن يجلس على فراش الزوج الحبيب ، رسول الله ، ورحمة العالمين.

ودخل رسول الله بيت زوجته سودة بنت زمعة ، كبيرة في السن ، ليست بذات جمال ، تزوجها الرسول بعد وفاة خديجة – رضي الله عنها– حماية لها بعد وفاة زوجها ، وإعجابا منه بإسلامها مع القلة التي سبقت إلى الإسلام في مكة قلبها كله حب وحنان لرسول الله.

ويذهب الرسول إلى بيت زوجته أم سلمة ، هند بنت أبي أمية بن عبد الله بن المغيرة المخزومي ، مات زوجها أبو سلمة شهيدا وهو ابن عمة رسول الله ، وأخوه في الرضاعة ، ومن السابقين إلى الإسلام ، تزوجها

رسول الله ليربي أولادها ، وتكريما لها ؛ لأنها هاجرت مع زوجها إلى الحبشة وإلى المدينة ، وكانت من السابقات إلى الإسلام ، ذات عقل وافر. وإيمان غامر ، وشخصية قوية ، وقلبها يغمره حب رسول الله ، والحنان له.

أنقذت المسلمين من الهلاك يوم الحديبية ، حينما أمر الرسول المسلمين بالإحلال من عمرتهم فلم يستجيبوا له ، فلما أخبرها الرسول بخوفه على المسلمين من الهلاك لمعصيتهم له ، قالت له (أخرج يا رسول الله فاذبح نسكك ، وتحلل من إحرامك فحينما يراك المسلمون تفعل ذلك سوف يسارعون غلا الاقتداء بك). وتحقق ما قالت ، فدل ذلك على يمن رأيها، ورجاحة عقلها.

وذهب الرسول الله إلى بيت زوجته حفصة بنت عمر بن الخطاب ، تزوجها الرسول بعد وفاة زوجها ، تكريما لها ، وتوثيقا لعلاقته مع عمر بن الخطاب ، أفضل أمة محمد بعد أبي بكر ، والصاحب الثاني لرسول الله بعد الصديق ، الفاروق الذي فرق الله به بين عهدينِ ، وأعز الله بإسلامه الإسلام.

ودخل رسول الله بيت زوجته ميمونة بنت الحارث الهلالية ، التي وهبت نفسها لرسول الله ، وتزوجها رسول الله تحقيقا لرغبة عمه العباس ، أنها أخت زوجته السيدة العظيمة أم الفضل ، من السابقات إلى الإسلام بعد السيدة خديجة –رضي الله عنها–.

وتزوجها رسول الله ليتقرب بزواجها من قبيلتها هلال ابن عامر ، وكان زواجه منها بعد عمرة الأداء التي سبقت الفتح بعام .

وترحم الرسول علي زوجته زينب بنت خذيمة أم المساكين ، التي توفيت وهي زوجة لرسول الله ، وكانت شديدة العطف علي المساكين حتى كنيت بأم المساكين.

وذهب رسول الله إلى بيت صفية ريحانة اليهودية فأنسها ، وأدخل السرور علي قلبها ، عرض عليها رسول الله أن يعتقها ويتزوجها ، فكان رأيها أن تظل ملك يمينه ، وصفيته ، لشدة غيرتها من زوجاته رضي الله عنهن .

أسامة على رأس آخر جيوش الرسول القائد

تذكر الرسول القائد غزوة مؤتة ، وزيد بن حارثة البطل الشهيد أول من أعلن إسلامه من الرجال ، الذي اختار قبل النبوة العبودية بجوار سيده محمد ، على الحرية والسيادة بجوار والده زعيم قومه ، فدفع هذا الحب الرائع والاختيار الباهر محمد لإعلان حريته ، وتبنيه له ونسبته إليه أمام كل قبائل قريش في المسجد الحرام ، وجاء الإسلام ، ونزلت الرسالة على خاتم الرسل محمد فكان من السابقين إلى اعتناق أنوار التوحيد.

زوجه رسول الله حاضنته أم أيمن ، بركة الحبشية ، الجارية التي ورثها عن أبيه عبد الله ، الذي مات وهو بعد أمانة في بطن آمنة ، بركة الحبيبة التي كانت تلازم آلام الحبيبة آمنة دائما ، والتي ماتت لآمنة في أثناء العودة من زيارة أخوال عبد المطلب من بني النجار من الخزرج أهل المدينة ماتت آمنة بعد أن زارت مع ابنها الصغير الحبيب محمد قبر زوجها الغالب عبد الله في رحاب المدينة ، ماتت آمنة أثناء العودة إلى مكة على صدر بركة أم أيمن فيما بعد ، ماتت آمنة وهي تضع يدها على طفل السادسة محمد الرائع الجمال ، ثم تنظل إلى السماء مشيرة بإصبعها قائلة : الله معك يا حبيبي محمد ، لن يتخلى عنك ، لقد رأيتك وأنت في بطني نورا خرج مني فأضاء العالم ، أضاء المشارق والمغارب ، وسمعت أكثر من مرة هاتفا يهتف بي يا آمنة لقد حملت بسيد الخلق ، برحمة العالمين وخاتم المرسلين . رأيت يا بني وأنت في بطني النجوم والقمر وكل ما في الكون يسلم عليك

وعلى قائلين بشراك يا آمنة في بطنك حبيب الله ونور العالم ، كنت في بطني نشوة ولذة وسعادة وفرح وسرور وسكينة وطمأنينة ، لم أشعر بثقل حملك أبدا ، رأيت وأنا حامل بك أجمل طيور خلقها الله ، لم أشاهد لها على الأرض مثيلا ، تدخل علي تشع نورا وبهجة ، ترفرف علي بأجنحتها نسيم المسك والعنبر والزهور والفل والياسمين ، رائحة عاطرة ليست من عطور الدنيا وطيبها ، وتلقي الطيور أنواعا من الفاكهة لم أسمع بها ولم أعرفها قائلات : كلي يا آمنة ليشبع نور الله إلى العالمين وسيد الخلق الذي في بطنك ، وعند ولادتك يا ولدي الحبيب ، أضاء القمر أضعاف نوره ، وأضاءت النجوم أضعاف نورها ، وأقترب القمر والنجوم من الأرض ، رأيت أمواجا من النور تخرج من بطني ، تتلوها أمواج من النور ، ثم رأيت السماء تفتح وتشرق أنوارا رائعة البهجة والجمال ، وكائنات عجيبة باهرة الضياء والجمال تنادي في سرور الليلة ولادة أحمد .

ورأيت النساء رائعات الحسن والجمال والبهجة وتفوح منهن روائح الطيب العاطر كأنه مزيج من كل عطور زهور العالم على رؤوسهن تيجان من اللؤلؤ والياقوت والزمرد والمرجان في هيئة تخطف الأبصار، والنور والإبداع عليهنّ حلل من الحرير الباهر الألوان المطرز بأنواع الذهب والفضة واللآلئ والجواهر التي تضيء العالم بأشعة نورها ، رأيت بينهن حوراء رائعة الحسن تقول أنا آسيا سيدة نساء العالمين زوج محمد في الجنة محمد وليدك يا آمنة ، كنت أري كل هذا الجمال العجيب وحدي يا ولدي الحبيب ، والجميع حولي لا يرون ما أرى سوى اقتراب القمر والنجوم من الأرض ، وتحول الليل إلى نور فضي باهر رائع الحسن والجمال ، ثم ولدتك يا ولدي فهبطت من بطني ، تضع يدك على الأرض وتنظر إلى السماء وتبتسم مما رأيت من باهر الآيات ، وتتطلع إلى ما وراء العالم المحسوس ، إلى قدرك في السماء .

ثم مسحت آمنة براحتها الحانية الجميلة دموع محمد المتساقطة كحبات اللؤلؤ علي ورود خده الجميل ، ثم طبعت فوق زهور خديه قبلات حانيات صعدت بها إلي جبهته الناصعة الفراء ، وفوق رأسه ذو الشعر الأسود الرائع الجمال ، ثم قبلت يديه قائلة : الوداع يا حبيبي محمد ، أستودعك الله خالق الكون ، ثم نظرت إلى بركة قائلة :

وصيتي إليك محمد يا بركة. كوني له أما ، يا بركة وغصت بركة بدموعها ، وشرقت بزفراتها وهي تقول : محمد في عيني يا سيدتي ومولاتي وحبيبتي. ثم أسلمت آمنة السر الإلهي من كيانها البديع الجمال ، وبكى محمد وهو يرتمي على والدته الحبيبة يغسلها بدموعه الطاهرة ، وقد احترق بنيران اليتم ، فوجد الصدر الحنون في انتظاره صدر بركة ، التي صارت له أما ثانية ، فكان يقول لها أنت أمي بعد أمي ، وتزوجت بركة من أبي أيمن . وأنجبت أيمن ، وكبرت في السن وقال الرسول يوما لأصحابه وكله حب لحاضنته أم أيمن من يتزوج أم أيمن أضمن له أن يكون رفيقي في الجنة . فقال زيد بن حارثة : أنا يا رسول الله . فسر رسول الله غاية السرور. وتزوجها زيد فأنجب منها أسامة ، أسامة هذا الشاب الأسود القوي الآمين. ابن أحب رجل وامرأة إليه ، أسامة هو الذي اختاره رسول الله القائد لآخر جيوشه ، سيكون أسامة هو قائد الجيش الذي سيرسله رسول الله إلى الشام ليثأر لشهداء مؤتة الكرام ، أسامة ابن السابعة عشرة من عمره ، هو قائد الجيش الذي فيه كبار الصحابة والقادة ، فيه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة ، والزبير، وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وبقية الأبطال العظام الذين يوزن الواحد منهم بجيش بأكمله ، وتبسم رسول الله في حزن ، وفاضت به الذكريات ، أنت يا أسامة الحبيب ابن الحبيب وابن الحبيبة ، أنت ابن أمي بركة التي ماتت أمي الحبيبة آمنة علي صدرها في الأبواء بين مكة والمدينة ، أنت يا أسامة شاب

والإسلام قام على صمود الشباب.

أنت يا أسامة شاب ، والشباب المسلم يجب أن يكلف بمعـالى الأمـور وعظيم التضحيات لاستغلال طاقاته الهائلة في بناء مجد الإسلام ، وتحصينه من الفراغ القاتل وما تبعه من وساوس الـشيطان والاحتـراق فـي نيـران الشهوات والمتع التي تأكل الجسد قبل أن تأكله الأيام والسنون.

أنت يا أسامة سوف تثأر لوالدك الشهيد الحبيب زيد ، وتثأر لجعفر بـن أبي طالب البطل الشهيد الذي يطير في الجنة بجناحين من النور ، ابـن العـم الغالي الشجاع القوي ، راعي المسلمين في الحبـشة والمـدافع عـنهم ضـد مؤامرات قريش مع حداثة شبابه ، البليغ ، الفصيح العظيم الإيمان ، الفقيه فـي دينه ، الرائع الجمال والجاذبية ، الذي كان أشبه الخلق برسول الله خلقا وخلقا.

الذي قدم مع المهاجرين من الحبشة عند فتح رسول الله خيبـر فقـال رسول الله وهو يعانقه ويقبله في سرور غامر (لا أدري بأيهما أنـا أسـر؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر).

وأنت يا أسامة سوف تثأر للبطل الشهيد الشاعر عبد الله بـن رواحـة شاعر الأنصار والمدافع عن الإسلام ، البطل المغوار ، الذي دفع ثلاثة آلاف من المسلمين لمقابلة مائتين وعشرين ألفا من جنود الروم وحلفائهم العـرب النصاري في غزوة مؤتة ، قائلا للمسلمين في شموخ حينما علمـوا بكثـرة عدوهم . (نحن لا نقاتل الناس بكثرة العدد أو العدة ، وإنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، وأن الشهادة في سبيل الله هي التي خرجتم لها طالبين) فتشجع الناس وخاضوا بحار الهول ، وسقط شهيدا مع أصحابه الأبطال قـادة الجيش.

وعسكر جيش أسامة في الجرف ، قرب المدينة ، في انتظـار إشـارة الانطلاق.

الرسول يشعر بالنهاية فيودع أموات المسلمين في البقيع

جاء شهر ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة المباركة ، وشعر الرسول بابتداء مرض الوفاة . فخرج مع مولاه أبى مويهبة في جوف الليل لوداعه الأموات ، كما ودع المسلمين الأحياء في حجة الوداع ، قائلا :

يا أبا مويهبة إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي.

هيا يا رسول الله فداك أبي وأمي.

ووقف رسول الله علي المقابر قائلا : السلام عليكم دار قوم مؤمنين. أنتم السابقون ونحن بكم إن شاء الله لاحقون ، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أخرها أولها ، والآخرة شر من الأولى ، اللهم اغفر لعبادك هؤلاء فهم بين يدي رحمتك ، ثم التفت إلى أبي مويهبة قائلا :

يا أبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة. فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله. فخذ مفاتيح الدنيا والخلد فيها ثم الجنة.؟

- لا والله يا أبا مويهبة ، لقد اخترت لقاء ربي والجنة.

- إذا غبت غابت عنا السعادة يا رسول الله - صلى الله عليك-.

- السعادة في طاعة الله يا أبا مويهبة.

وفاضت عينا أبي مويهبة بالدموع ، وشرق بالزفرات والتأوهات .

فداك أبي وأمي يا رسول الله ، فداك العالم كله يا رسول الله .

ونظر رسول الله إلى خدمه المخلص ومسح علي رأسه في حنان واستغفر لأهل البقيع ، وفاضت عيناه بالدموع ، وهو يودعهم الوداع الأخير ثم انصرف مع صاحبه المخلص ، وبدأت آلام المرض تشتد علي رسول الله.

الرسول يداعب عائشة ثم يلزمه المرض بيتها

عاد رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه– من مقابر البقيع فوجد عائشة زوجته الحبيبة تشتكي من صداع في رأسها ، فأراد مداعبتها ، فقال لها وهي تصرخ قائلة : وا رأساه .

بل أنا والله يا عائشة وارأساه ، اقتربت ساعة الفراق.

واشتد به المرض ، فكان يدور علي بيوت زوجاته معتمدا على كتفي علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه– والفضل بن العباس –رضي الله عنهما– صلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله. تعدل في زيارة نسائك حتى في مرض الوفاة؟ ! .. أي مثال عملي هذا للأزواج للعدل بين الزوجات .

وأي مثال هذا في احترام الزوج لزوجته ، وها هو المرض يشتد برسول الله حتي يغلبه علي نفسه ، فيرسل لنسائه جميعا ، فيستأذنهن في أن يمكث في بيت عائشة طوال فترة مرضه الباقية ، فيأذن له في حب وحنان وتقدير ، وآلام لا حد لها لآلامه العظيمة.

فلله أنت من مثال كامل للبشر يا رسول الله– صلوات الله وسلامه عليك– وفداك أبي وأمي والخلق جميعا.

الخطبة الأخيرة لرسول الله وما فيها من الوصايا

سكب رسول الله على جسده الطاهر مياه سبع قرب من سبع آبار. فأحس بانطفاء نيران الحمى ، ثم خرج رسول الله عاصبا رأسه ، معتمدا على علي والفضل ابني عميه ، حتى جلس على منبره الشريف لآخر مرة ، ثم نظر إلى أصحابه في حب وحنان ، والأعناق مشرئبة إليه ، والقلوب واجفة . والأسماع مرهفة ، والعيون تحيطه بهالة من الحب.

وتكلم الرسول الأعظم والقائد الأعظم ، فحمد الله – جل وعلا– وأكثر الثناء عليه والحمد له ، وتطلع إلي السماء فقد أوشكت ساعة الصعود إلى الرفيق الأعلى الحبيب ، وعاد الرسول العظيم ينظر إلى أصحابه ، فأكثر من الصلاة على أعظم الشهداء ، شهداء أحد ، واستغفر لهم فأكثر الاستغفار ثم قال :

إن عبدا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله ، فبكى أبو بكر الصديق ، إنه بشعاع قلبه المتصل بشعاع قلب رسول الله علم أن المخير هو رسول الله– صلوات الله وسلامه عليه– بكى الصديق العظيم ، لأن الصديق الحبيب على وشك الانطلاق من دار الفناء إلى دار الخلود ، إلى الرفيق الأعلى الحبيب ، إلى النور الباهر ، والنعيم الخالد ، وفرقة الحبيب آلام ، وغيابه عذاب ، وقال أبو بكر وهو يشرق بدموعه ونشيجه : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا يا رسول الله.

على رسلك يا أبا بكر.

هذه الأبواب النافذة في مسجدي سدوها إلا باب بيت أبي بكر ، فإني لا أعلم أحدا كان أفضل في الصحبة عندي بدا منه.

ولو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده.

وفاضت الدموع من سحب العيون ، وأحنى الصديق رأسه تواضعا لله. وخنقته الدموع ، وتعالت دقات القلوب حبا لرسول الله وخوفا عليه ، فإحساس القلوب الصادق يخبر أن ساعة الهول الأعظم على وشك الوقوع .

أيها الناس : انفذوا بعث أسامة فلعمري لئن قلتم في أمارته ولقد قلتم في أمارة أبيه من قبله ، وإنه لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليقا لها ، وصاح عمر : قطعت الألسن التي تتكلم في إمارة أسامة وإمارة أبيه يا رسول الله فداك أبي وأمي.

يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيرا ، فإن الناس يزيــدون . وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم كانوا عيبتي التـــي أويـــت إليهـــا. فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم.

وصاح الأنصار وهو يجهشون بالبكاء ، وهم ينظرون إلى رســـول الله خلف سحاب شفاف من الدموع : أرواحنا فداء لك يا رسول الله - صـــلوات الله وسلامه عليك- وصاح المهاجرون ، وهم يحترقون بالآلام لألم رسول الله

الأنصار في عيوننا وقلوبنا يا رســـول الله فـــداك الآبـــاء والأمهـــات والأرواح يا رسول الله .

ونظر الرسول إلى الجميع بحنان وحب ورحمة ، ورفع يده إلى السماء ثم أشار بها إليهم وهو يدعو الله لهم ، ويستغفر لهم رب العالمين.

ونزل رسول الله من فوق المنبر الذي شهق بالنحيب وداعا لأفضل خلق اله واحتجبت السماء من الحزن بنقاب من السحاب ، وصـــاحت بـــالرعود . وصورت رسول الله بكاميرات البرق ، وودعته وهو داخل إلي بيت عائـــشة بأمطار الدموع.

اللحظات الأخيرة والوداع

وجاء أسامة بن زيد يعود رسول الله ، وينتظر الإذن من رسول الله بالانطلاق نحو الروم في الشام ليثأر لشهداء مؤتة ، ويضربهم ضربة مؤلمة مفاجئة كما أمره رسول الله القائد الأعظم ، ورفع الرسول يده إلى السماء ثم وضعها على أسامة ، ودعا له الله بالنصر والفوز والتوفيق .

وخرج الرجال وجاءت زوجات رسول الله يحطن به ومعهن فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين ، وبكت صفية بنت حيي زوجة رسول الله عليه أشد البكاء وهي تراه يتألم في مرضه ، قائلة في صدق .

(يا ليت الذي بك بي يا رسول الله)

وهاهي أيضا زوجتك الحبيبة أم ولدك إبراهيم مارية القبطية المصرية ، تبكي عليك بالدموع الغزار ، فأنت لها أيضا كل شيء ، أيها الزوج الحبيب العظيم زوجتك الغالية تفيض الدموع حزنا لفراقك ولآلامك ، والسَّيدة صفية زوجتك الأثيرة تساقط دموعها ألما لفرقك .

وجاء جبريل – عليه السلام – بخير رسول الله بين الخلود في الدنيا ومفاتيح خزائن الأرض والجنة ، وبين الصعود إلى الرفيق الأعلى والجنة . وقال رسول الله وهو ينظر إلى السماء : (بل الرفيق الأعلى من الجنة) وطلب رسول الله أن يصلى أبوك بالناس ترشيحا له لخلافة رسول الله فقالت عائشة في شفقة تريد صرف أبي بكر عن هذا الموقف .

قَالتْ إن أبا بكر رجل رقيق ، ضعيف الصوت ، كثير البكاء إذا قرأ القرآن

مروه فليصل بالناس .

وكان أبو بكر غائبا فصلى عمر بن الخطاب بالناس حينما دعاه لذلك

عبد الله بن زمعة ، فحينما سمع ذلك رسول الله قال : (أين أبو بكر ؟ يـأبى الله ذلك والمسلمون ، يأبى الله ذلك والمسلمون)، فقال عمر حينما أبلغ بذلك لابن زمعة : ويحك ماذا صنعت بي يا ابن زمعة ، والله لقد ظننت أن رسول الله أمرك بذلك ، وجاء أبو بكر ، فصلى بالناس.

وهذا خير دليل علي ترشيح رسول الله لخلافته الصديق أبـي بكـر - رضي الله عنه- وإلا ما كان رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه- يقـول عن صلاة عمر بالناس يأبى الله ذلك والمسلمون.

وجاء يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول ، وكان المسلمون يصلون الصبح ، فقام رسول الله فرفع السترة وفتح الباب ، ووقف رسول الله علـى باب عائشة ينظر إلى المسلمين في سرور، وبسمة ملائكية شفافة تحيط بهلال وجهه الرائع الحسن ، الباهر الجمال ، وحينما أحس المسلمون برسـول الله كادوا يفتتنون في صلاتهم برسول الله حين رأوه فرحابه وتفرجوا له.

فأشار إليهم أن اثبتوا علي صلاتكم ، وتبسم رسول الله سرورا لما رأى من هيئتهم في صلاتهم ، لقد ثبت التوحيد والإسلام ، يقول أنس بـن مالـك خادم رسول الله : ما رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- أحسن هيئـة منه تلك الساعة ثم رجع رسول الله إلى فراشه ، وعاد الناس إلي بيـوتهم ، وهم يرون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قد شفاه الله من مرضه .

فرجع أبو بكر ﷺ إلى أهله بالسنح بأعالي المدينة .

وعاد رسول الله ﷺ فاستاك بسواك لينته له زوجته السيدة عائـشة ووضـع رأسه في حجر عائشة - رضي الله عنها- وضع رأسه بين سحرها ونحرها وفتحت أبواب السموات ، وأشرقت الأنوار الآلهيـة ، واسـتعدَّت ملائكـة السموات لاستقبال روح ونفس خير خلق الله ، وفاحت في الأكـوان أمـواج شذى الجنان العاطر.

هبط جبريل - .عليه السلام- وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل كبار الملائكة -عليهم السلام- مع جماعات من الملائكة في أبهى صورة- وأجمل هيئة ، وأفضل طيب ، ليصاحب الموكب المهيب روح ونفس رسول الله في الصعود إلى رب السموات والأرض ، إلى الرفيق الأعلى ، وشخص بصر رسول الله إلى الملائكة الكرام ، وَهُوَ يقول : (بل الرفيق الأعلى من الجنة) وقبضت روح رسول الله - صلوات الله وسلامه عليك - وجلجلت السماء شوقًا لرسول الله ، واندفع موكب النور إلى عالم الخلود ، وتشوقت الأرض لاحتضان الجسد الطاهر ، في حنان الأم الرءوم ، وفارق الدنيا أعظم خلق الله ، وأعظم أبطال الحرب والسلام - صلوات الله وسلامه عليه-.

محمد عبد المنعم رضوان

كتب صدرت للمؤلف

١- شهيدة دير ياسين	(قصة شعرية - ١٩٧١م- مطبعة عيسى الحلبي) - نفذت
٢- الهلهل بطل الانتقام	(مسرحية شعرية - ١٩٧٢م- مطبعة عيسى الحلبي)-نفذت
٣- الطريق لعودة الخلافة الرشيدة وبعث أمة الإسلام العظمى	(كتاب في الفكر الاستراتيجي الإسلامي ١٩٧٧ م دار الأنصار) نفذت
٤- الأمام والقس فوق الجسر	(رواية واقعية - ١٩٨١ دار البحوث العلمية)
٥- الصراع المقدس	(ملحمة مسرحية - ١٩٨١ م -دار البحوث العلمية)
٦- المرأة المصرية في القرآن والحديث	(سير نساء عظيمات - ١٩٨٣م
٧- زواج الشاعر	(مسرحية شعرية واقعية)
٨- هتلر وإيفا	(مسرحية تاريخية)
٩- القمر والكافور	(رواية واقعية)
١٠- هاللو مسز بريطانيا	(مسرحية ساخرة)
١١- خسرو وشيرين	(مسرحية شعرية)
١٢- رسول الإسلام القائد الأعظم في الحرب والإسلام	(دراسة في السيرة الحربية للرسول)

فهرس

مؤسسة حورس الدولية
طباعة . نشر . توزيع
١٤٤ ش طيبة سبورتنج الاسكندرية ت: ٠٠٢٠٣٥٩٣٠٥٩٨ - تليفاكس: ٠٠٢٠٣٥٩٢٢١٧١ - محمول: ٠١٢٣٢٩٣٦٣٨
Horus International Institution For Pressing - Publishing - Destribution
144 Tiba st.sporting -Alexandria Phone : 00203 5930598 - Fax: 002035922171 Mob :012 3293638
E-mail: horus.alex2007@yahoo.com